طرقات الجمر

تأليف:

يزن حمدان

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(3148 / 6 / 2021)

819.9
حمدان، يزن سمير عبدالله
ر.إ: 2022 / 6 / 3148
الواصفات: /النصوص الأدبية// الأدب العربي // الاحوال السياسية// الثقافة العربية المعاصرة/

Isbn 978-9923-24- 163-9

Copyright ©

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights reserved. NO Part of this book may be reproduced, stored in aretrival system, or transmitted in any form or by any means, without prior permission in writing of the publisher.

إِهْداء

أُهدي كَلِماتي إلى الأَهلِ والأَصدقاءِ ولكلِ شخصٍ كانَ سَبباً في إنجاحِ هذا العَمَلِ البَسيط، أُهديها أَيضًا لِكُلِ مَنْ يملأه الإِصرار ويَسعى إلى الوصولِ لِأَحلامه البَسيطَة ويُحَلِقُ بِأَجنحةِ الطُموحِ في سَماءِ المَجدِ وَلِكُلِّ مَنْ يَسمعُ صَوتَ قَلبه النابضِ وَيَرتَقي بِفِكرِه إلى الوَعيِ والتَفكير السَليمِ ولا يُغمضُ عَينيهِ عنْ الحَقيقةِ وَيَقولُها رَغمًا عَنِّ الجَميع.

المقدّمة

في لحظات الضعف منْ الطبيعيِ أنْ تخرجَ حزنكَ، وتسترجع مواطن خذلانك دون تقمص عقلية الضحية، في الوقت ذاته تطلق عنان قوتك لتخرج من مكامنها، لتكون سلاحك في طريق الجمر الذي تدوسه بقدمين عاريتين مجبرًا على خوض معركة الحياة، وإنّك حتمًا ستصل برّ الأمان.. برِ الأَمانْ.

في صفحاتي التي بين يديكم أضع قصصًا واقعية أنسجها مما رأيت وسمعت وعشت، حكايات تتكرر كل يوم، وتتردد بذهن كل منكم مع اختلاف تفاصيلها، ستجدون بين النصوص رسائل مبطنة، وإشارات قد تفيدكم في قادم الأيام، كل ما عليكم الإصغاء إلى نداءات أرواحكم، ضعوا العلامات على الجمل التي تستوقفكم فقد تحتاجون العودة إليها يومًا، أهيدكم محبتي.

نرين

الجمرة الأولى

في هذا العالم المليء بالتناقضات، نَتَمَسكُ بالصمت ونَعتَزِل العالم باحِثينَ بِاللاوَعي عَنْ الاستِقرار، بعد أن نزفنا أرواحنا في محاولات بائسة، أشعلناها كما تشتعل السجائر في أفواه العابثين، فبتنا دخانًا سرعان ما ينفثونه عنهم، وكي لا نمتلئ ندمًا وكرهًا وحقدًا علينا أن ننفرد بجراحنا، نستحضر الجمر الذي أحرق أقدامنا في طرقات مشيناها قسرًا، حان الوقت أن نجلس تحت شجرة نستظل بفيئها، نستعيد أنفاسنا ونشحذ قدرتنا على مواصلة المسير، نتأمل أين أصبنا وكيف أخطأنا، ماذا أهدانا القدر وما أهديناه؟

نعلم أنَّ الصبر بلغ أوجه، وأنَّ الروح أوشكت أن تعلن عصيانها، نَعيشُ بَينَ الخيَالِ والحَقيقَة، وَنستحضر وَحيَّ الماضي متشبعين بِأَلمِ الحاضِر والواقع المُرّ، ونَنتَظرُ الفَرَجَ القَريبَ على أبواب المُستَقبَل، نداوي جرحًا فينفتح ألف جرح، ونتفاقم المعاناة وكَأَنَ الهُمومَ أحبتنا حتى استقرت في أجسادنا، تخبرنا تشققات أيدينا بشقائنا، وتعكس وجوهنا أنات الروح الحبيسة في جسد من طين.

تضيق سبل الحياة ونهيم في عتم الليل على طرقات من جمر نناجي

الله، نحمل مصباح الأمل والرجاء في أيدينا، نتعثر فنقف مجدّدًا متكئين على أنفسنا، لنسند أنفسنا ونثابر على طريق المستحيل، قد يكوينا الصمت لكنّه حتمًا يشفينا.

رسالة إلى قلبي

كنت ساذجًا بما يكفي لتصاب بالخذلان، وكنت أحمقًا لتقع فيه مرات ومرات دون أن تقسى مرة وتعلن الحياة لنفسك، أخطأت حين نبضت لهم، وأصبت بالوهم حين دخلك الغرباء، فمع كل نبضة سلام ومحبة منك، كانت طعنات خيانة وغدر وإهمال، أذبلوك وأرهقوك وتركوك نازفًا غارقًا بدم لا تضخه للحياة، بل لتعلن الموت حيًّا تلوذ بالصمت، فآن أوان تدارك الحسرات ونفضها، آن أوان الحياة حيث تستحق فاطمئن فأحسن الظّن بالله، فإنْ خذلك البشر فالله عادل كريم، يحسن العوض

موجٌ مِنْ حَقيقَة

عبر نوافذ الروح أبحرت في وحي من الخيال، ركبت سفينة الحلم وأبحَرتُ في بواطن عقلي، نصبت أشرعتي لتقاوم التيار، لتطلّ أمواج عابثة غامضة، تهتُ واسترقت نظرة خاطفة أتفحص المكان، كان الظَلام حالِكًا، والكآبة سيّدة المكان، وكأني لذت بالغفوة؛ لِتُشرِقَ شَمسُ حُلُمٍ جَديدٍ على أطلال مُخَيِّلَتي، مَرَرتُ بِشواطِئ كَثيرة، أوّلها ملوّن جميل يعج بضحكات الأطفال ممتلأ بالحياة، أصابتني الحيرة، ليبددها عجوز أطل عليّ باسمًا، فَسَألتُهُ أينَ نَحنُ؟

فأجابَني: على شاطِئِ الطُفولَةِ.. هُنا تَرى بدايَتكَ طِفلاً صَغيرًا بلا مَسؤولِياتْ، تلعَبُ وتلهو، يسرقك الوَقت الذي لا تكترث به أو له، يشغلك اللهو والضحك وأنت خالي البال مطمئن القلب.

سَألتهُ ومَنْ أنت؟

قالَ: قَبلَ أَنْ أُجيبَ عنْ سُؤالِك سَنركَبُ نفسَ السَفينة التي جِئتَ بِها، ونَمر على الشواطئ وفي النهاية أخبرك من أكون.

رَكِبنا السَفينَة يداهمنا الموج من جديد حتى استقرت بنا على شاطئ

آخر يعج بالحياة تغطيه النباتات والأشجار، يتزين بالأزهار.

سألته: أينَ نَحن الآن؟

أجاب: هذا شاطئُ الشَبابِ، المرحلة التي تحلو بها الدنيا بعينيك، ويتحتم عليك تحديد مسارك، وتكثر أمامك الخيارات، لتكون مسؤولًا عن نتائجها فيما سيأتي من عمرك.

مَشينا وأنا أتأمل الشاطئ الجميل رغم خطورته، فصادَفنا مَجموعَة منْ الشبانِ يَتصايحونَ ويتعاركونَ، التفتُّ مستغربًا، أمسكت بثوبه وأنا أسأله ما بال هؤلاء؟

فقال ضاحكًا من حالهمَ: إِنَّهُمْ في خلاف وعراك دائم، مرة على الدينْ وأخرى على العِرقْ واللَّون، أحدهم غَرَّهُ النَسَبَ، وآخر يَختَلفُ مَعهُمْ على المَنصِب، هكذا يفنون أعمارهم في غفلة حتى قيام الساعة.

قادني إلى السفينة من جديد، لنتجه لشاطئ ثالث غير بعيد، يتلاعب بنا المَوجُ حتى وصلنا، هذه المرة رأيت شاطئًا مختلفًا، تكسوه رمال تمنحه لونًا برتقاليًّا، وتغطيه الأوراق اليابسة، أَشجارهُ تكاد تكون عارية مِنْ أَوراقِها، والنَباتُ في مَراحِل الذُّبول وعلى الرِمالِ يَجلِسُ شَيخٌ طاعِنٌ بِالسِّنْ، مِنْ حَولِه صَناديق خَشَبيَّة قَديمَة تغطّيها الغُبار، سَألتهُ أينَ نَحنُ

الآن؟ وَمَنْ هذا العجوز؟

قالَ لي: هُنا شاطِئُ الشَيخوخَة، حيث تنهكك الحياة، تظل تركض خلف أمنياتك حتى تخور قواك، ثمّ تقعدك الأمراض في انتظار الرحيل، فتجلس تتأمل مراحل العمر، ماذا قدمت وأين قصّرت، كم فرحت وكم مرة حزنت، أين أنت من الله وأين الله منك؟ وعليه سيكون مصيرك فإما إلى جنة أو نار.

سأَلتُه، حسناً من أنت أجبني؟

أومأ برأسه، ظلّ شاطئ واحد وأنهي فضولك.

عُدنا إلى السَفينَةِ التي أَبحرَت بهدوء هذه المرة وهَدَأ موجها، فَلَمّا وَصَلنا، وَجدتُ شاطِئًا أَرضُهُ قاحِلَة وَرِمالُهُ سَوداء، وَفيه قبرٌ تُحيطُهُ الحِجارَة مِنْ كُلِّ جانبٍ، سألتهُ ما هذا المكان المخيف؟ أينَّ نحنُ الآن؟

قالَ لي وقد اختنقّ وجهه: هذا شاطِئُ المصير، حين ينتهي عمرك وتقبض روحك بأمر الله، وتَستَفيق مِنْ وَهمِها، وتبدأ رحلة الحيَاةِ الآخِرَة، أمّا هذا القَبرُ فهوَ بيَتُكَ الثّاني، الَّذي إما أَنْ يكونَ رَوضَةً مِنْ رياضِ الجنَّة، أَوْ حُفرَة مِنْ حُفرِ النَّارِ، وأنا أيها الشاب مَلاكُ المَوت.

ارتجفت وكأنَّ صاعقة أصابتني، فهدأ من روعي بقوله:

لا تَقلَقْ، كانت جولة تعرّفت بها على مراحل حياتك، ولن أقبض روحك قبل أن ينتهي أجلك الذي لم يحن بعد، لكِنْ لا بُدَّ وأنْ أَلتَقيَ بِكَ في يَومٍ مِنْ الأَيامِ مَرةً أُخرَى وَفي سَاعَة محدّدة لا يَعلَمُها إلا الله، وإلى حينِها اذهَبْ وَقُمْ مِنْ غَفلَتِك، وَارجعْ إلى رَبِّك، العُمرُ يمضي، وَلَنْ يَمنَعَني عنكَ أَحَد فلا مَفرَ مِنَ المَوت.

عُدتُ إلى واقِعي وكأن طيارة ألقت بي من السماء فارتطمت بالأرض، أتحسس جسدي، أمسك رأسي بين يدي وكلامه يتردد في سمعي، استجمعت قواي حتى هدأت روحي مِنْ هَولِ ما رأيت وعَلمتُ، صغرت الدينا بعيني، تلك الرحلة القصيرة المرهقة تَسرِقُكَ بِغفلَتِها كالسَّفينَة في بَحرٍ هائِجٍ، تَلعبُ بِها الأَمواجُ ومَراحلُ الحياةِ كالشَّواطِئِ التي تفضي إليها كلّ مرة، في كُلِّ مِنها ترى ما تخطيت قبلها، دون العلم بما سيأتي بعدها، وهنا الدرس: عليك مراجعة نفسك كلّ يوم، عليك أن تحاسبها وتؤدبها، وتفتح بصيرتها وتزيل الغشاوة عن قلبك لتبصر مرحلتك القادمة في رحلة قصيرة نهايتها تجد ما عملت حاضرًا فلا تكن من الخاسرين.

الزائر

في غفلة منا، يأتينا زائر مباغت، يكسر روتيننا الذي كنا نراه قاتلًا، ليغيّر نظرتنا عنه ونتمنى أن يعود، زائر غيّر مرغوب يغير معالم الحياة، تخطى المسافات وعبر القارات، فرض نفسه وزرع الخوف والحيرة في قلوبنا، دخل بيوتنا، هدَّد صحتنا وأنهك طاقتنا.

دون سابق إنذار، احتلّ أوطاننا يقتل أرواحًا، وينهب صحة، في يوم وليلة تنهار أمامه اقتصادات دول عظيمة، وتشلّ حياة أسواق كانت تعج بالناس، يقعدنا في بيوتنا عنوة، يمسك الكرة الأرضية بيده ويوحّد مصيرها، يمنعنا من التواصل، يلزمنا بالعزلة في ظروف لم نعهدها من قبل، وهم غريب علينا لم نتوقعه يومًا.

في زمن انتهت معجزاته، وطغى بنو البشر وتكبروا، ونسوا خالق الأكوان، الذي إن أراد لهذا الكون شيئًا قال له كن فيكون، فيرسل الله أدق مخلوقاته مذكرًا، ميكروب لا يُرى بالعين المجردة، يشلّ حياة الكون بأسره، يغلق مطارات، ويسكت ضوضاء مدن، يقهر العلم والعالم، لا يفرق بَيَنَ غَنِيٍّ أَوْ فَقَير، حاكِمٍ أَوْ مواطن، أَبيضَ أَوْ أَسوَد، لِيجعَلَنا سواسية في وقتٍ كُنَّا فيهِ نَتباهى بِالمَناصِب والعِرقِ وَنختَلِفُ على

الدّين واللَّون، لِتعلَم أَيُّها الغافِلُ بَأنَكَ مَهما بلَغتَ مِنَ الطُّغيان أوْ امتَلَكتَ مِنْ أَسلِحة لَنْ تَقدِرَ على جُندِ الله، ولوْ كانَ بِحَجمِ مَيكروب تَحتاجُ إلى مِنظارٍ مِجهَرِيٍّ لِتراه.

قاتل مجهول صامت، يتسلل كيف شاء ومتى أراد، يلقننا درسًا قاسيًا، ينبهنا لنستفيق من غفلتنا، سواء أكان مفتعلًا من البشر أم أنه رباني، فإن هذه الدنيا لا يعوّل عليها، زائلة بائسة ضيقة مهما اتسعت، قصيرة مهما طالت، مهدّدة بأي وقت بالبلاء، لم يكن «كورونا» زائرًا لطيفًا، إنّما درسًا قاسيا أعاد برمجة العالم بأسره.

السجين رقمِ ٧

مِنْ قَبري الكئيب، ومِنْ شَتاتِ روحي.. أَزُفُّ لَكُمْ سلامي والشوق للسماء يحرق روحي، أفتقد أحضانًا كانت تسكن روحي، ووجوهًا تؤنس أيامي، من معزلي هذا أبثكم أنّاتي..

في السجن لا اسم لك، فأنا مجرد رقم، ورقمي «٧» يرددونه في فقرة العدد كلّ يوم حتى كدت أنسى اسمي كما نسيني عنواني، أنا فعلٌ ماضٍ ومستقبلي في قبضة سجاني مبنيٌّ للمجهول، أمّا حاضِري فمَدفون خلف القضبان.

أنا السَجينُ رَقم سَبعَة، أكتب لكم إذ عزّ اللقاء، أسرق دقائق الوقت علّ دقات قلبي تصلكم، فتخبركم عن سؤال لا يسمح لي أن أسمعه منكم، ألستم تسألون كيف حالك؟

إليكم حالي:

أكتب لكم بالدم والدموع من جحيمي هذا، بَيَنَ برودَةِ السّجن وجُدرانَهُ العالِيَة الَّتي تَحجِبُ عنّي نورَ الشّمس، أقبع خلف القضبانِ الجاحِدَة الَّتي تَأسِرُ روحي، أَجلِسُ وَحيدًا مَعزولاً عَنِّ العالم، ولا أعلمُ

فِي أيِ يومٍ نَحن، وكَم يَمضي مِنَ الوَقت، تَوقفَ الزّمانُ عِندَ لَحظَةِ دُخولي إلى هذا المَكانِ البائِس المُميتْ.

أعيش اليوم كأنه دهر، يشرع سياطه عليّ يعذب جسدي وروحي، يجلدني السجان حتى يذوب لحمي فلا يهدأ باله حتى يراني غارقًا بدمائي، أصرخ عند أول عشر ضربات ثم أصمت، أتجرد من جسدي، أسمح للدموع والدماء بالسيل في صمت لتبرد حميم السياط، ثم يعيدني لزنزانتي وقد اسود وجهي وجلدي.

نحن هنا لا نسمع الموسيقى، بل صراخ يَهزُ أَركانَ السِجنِ، وعويل الأسرى القادم من زنازين، التعذيب يتردد بين الجدران، أصواتٌ ترتعدُ لها القلوبُ، هنا أرواحٌ تتمنى الموت فلا تلقاه، تعاني الذل والأمراض، فهنا لا اهتمام ولا غذاء ولا علاج، أجسادنا مسرح للأمراض تنهشها، والقوارض ترقص على الأرض تشاركنا المنام والطعام.

هذه الرسالة من عمق السجن وجدت محفورة على جدار زنزانة مات سجينها، وترك لنا مرارة أيامه، في حين لا زال آلاف الأسرى يجترون العذابات مثله وربما أكثر.

قريةٌ منْ الهاويةِ

في القرى الوادعة التي يغرك هدؤها عشرات القصص المبكية، وخلف الجدران آلاف الجروح والحكايات الحزينة التي يقاس عليها واقع مجتمع كامل يعيش سكانه خلف مكعبات اسمنتية صماء، يحفظ الزمن حكايات أهلها ويتناقلها الأجيال الذين يقعون في الأخطاء ذاتها، ويقترفون الذنوب وكأنها تتوارث لأزمنة طويلة.

في قرية من الهاوية تَروي طرقاتها وجدرانها قصصًا حزينة لذكريات مؤلمة، غيّب الزمان أصحابها لكنّ حكاياتهم ظلّت حيّة لا تموت، هنا عاش سلطان، الشاب الوسيم في العشرين من عمره، كان يصنع مستقبله على عينه، ولد ليجد نفسه رجلًا يعتمد عليه، سلبته المسؤوليات طفولته، إذ يعمل في دكان صغيرة في القرية ويحمل كتّابه بيده، مضطراً لإعالة أسرته وتوفير مصاريف دراسته، بعد سنوات من الكدّ والتعب، تخرج من الثانوية العامة، وحصّل على الشهادة الجامعية بجهد مضاعف، والكثير من الأمل في الحصول على وظيفة يستحقها، تؤمن له المستقبل المجهول.

رغم بساطة أحلامه، التي هي حقوق إنسانية توفرها الأوطان لأبنائها، وقف الفقر بوجهه من جديد، في دنيا لا ترحم الفقير ولا

تعطي كل ذي حقّ حقه، في كل مرة يتقدّم فيها لوظيفة كان يعود خائبًا يأكل الإحباط قلبه، فالوظائف معدّة مسبقًا لأصحابها في زمن الوساطة والمحسوبية، يعيد الكرّة مرارًا وتكرارًا بلا جدوى، فيركن الشهادة جانبًا ويشمر عن ساعديه، فتصنيفه في قائمة الفقراء يرتب عليه ثمنًا باهظًا عنوانه الحرمان.

مرّت الأيام وهو يقتات الهم والغم ليل نهار، تروي ملامحه البؤس الذي يحياه، يعود كل يوم منهك الجسد خائر القوى، في الوقت الذي ينعم فيه أبناء المسؤولين بالوظائف والمراتب والسيارات الفارهة والحياة المريحة، كل شيء لهم متاح، وكل ما تصله أيديهم يغدو حلالا ولو كان ملكًا لغيرهم.

لم تكتف الحياة بهذا الكم من الظلم لسلطان، لم تحطم أمله بحياة كريمة فحسب، بل سلبت منه حبيبته أمل وآخر آماله في الحياة!

كانت أمل خيوط الشمس التي تشرق على ليله فتجلوه، يعمل ويعمل لأجل حياة تجمعهما كحق مشروع، وهي الفتاة التي اختارها قلبه لحسنها وعفافها وطيبة منبتها، فهي من أسرة محترمة متواضعة، متفوقة بدراستها ومميزة بحسنها خلقة وخلقًا، ما جعلها مطمع الشباب دومًا، ذلك الجمال اللعين الذي قد يردي صاحبه في هاوية الحياة، ذات يوم

تعرّض لها شاب مقتدر طالما أرادها وصدته، تقدم لخطبتها فرفضته، فالمال وحده لا يكفي لبناء الأسر، كانت مثل سلطان، تحلم بالاستقرار والحب الحقيقي، أرادته كما أرادها ورفضت كل المغريات دونه، إلا أن الثمن كان باهظًا.

كان يومًا مظلمًا طويلا لم يأتِ بعده نهار، حين انقض عليها ذلك الشاب ونهش عرضها، وهتك شرفًا حافظت عليه ودافعت عنه بما أوتيت من قوة، لكنه تمكن منها ليذيقها مرارة الذل، فكيف لفقيرة أن ترفض ابن الذوات؟!

عادت المسكينة للبيت تقطر دمًا وروحها تنزف قهرًا، ارتمت على عتبة بيتها، وانهار جسدها كالمصيبة التي وقعت على رأس أهلها، فما إن رأى أخوتها حالها، والكدمات على جسدها الطاهر، استلوا سكاكينهم وهجموا للانتقام، وأمام المنزل الفارِه، كان القدر بالمرصاد، ما إن اقتربوا يصرخون مطالبين برأس الشاب المتغطرس عديم الشرف، حتى انهال عليهم الرصاص كزخات المطر، ليحيلهما جثتين، وسرعان ما تناقلت القرية الخبر الذي طار سريعًا في الأرجاء، وليته ينتقل صحيحًا، فهي الشائعات عادتها تلويث كل طاهر، فما أكثر الذين طعنوا الفتاة المسكينة بشرفها، ونسجوا حولها القصص والروايات، دون رأفة بحالها وهي التي فقدت شرفها وأخويها في

آن، كما فقدت أملها في حب حكم عليه بالقتل بلا رحمة.

ظلّت أمل الجميلة تحرس أمها التي فقدت نظرها من فرط الحزن وحرارة الدموع، حكم عليها بالعنوسة والوحدة مدى الحياة، إذ قتلوا كل أمل لها في الحياة ليجعلوه مجرد اسم يذكرها بمأساتها.

وفي زقاق قريب في القرية ذاتها، يتناقل أهل الحي قصة أحمد، الطفل الذي اختفت آثاره بعد أن خرج مفعمًا بالحياة ليجلب لأهله الخبز، يحث الخطى ليعود سريعًا ويحظى بوجبة غداء حول مائدة تجمعه بوالديه وأخيه الصغير، أراد العودة قبل أن يبرد الطعام، فأطلق ساقيه للريح، لكنّه لم يرجع!!

اختفت آثار الطفل، ولمّا طالت عودته هبّت القرية تبحث عنه مع أبويه، وغرقت الأم بدموعها، أما الأب فكسر ظهره إذ انعدم الأمل بعودة طفله إلى حضنه، أما الطامة الكبرى والتي لن تنسها القرية وأهلها فهي جثته الممزقة التي عُثر عليها في أحراش القرية وقد سلب المعتدون أعضاء من جسده الضئيل ورموه بلا رحمة، حادثة تصدعت جدران القرية لها، حزنًا على قلب أمه المفطور، وأبيه الذي غابت البسمة عن وجهه للأبد، مرّت عشرة أعوام على القصة التي ما زال أهل القرية يتحدثون عنها، أما أم أحمد فترثي ولدها في كل ذكرى

ميلاد له، تعدّ السنين، تقول لو كان بيننا لصار عمره ١٢ عامًا، تتساءل كيف سيكون شكله شابًا؟ ماذا سيدرس، تتخيله بتفاصيل كتب عليها الموت والغياب.

أنباء قرية الهاوية تتكرر في كل القرى والمدن، في عالم البشر ذئاب بشرية تنهش الأرواح، وتهتك الأعراض، وتسرق الفرص والمناصب بدم بارد، حياة يحكمها قانون الغاب، البقاء فيها للأقذر والأقوى، فَكم شابِ حالُهِ كَحَالِ سُلطانْ سُرِقَتْ أحلامهُ وَصفَعتهُ الحَياة حَتى تَقطَعتْ أوَصالُه وشابَ شَعرُهِ في عُمرِ الشبابِ؟!

وَلوْ أَنصَتنا قَليلاً لَسَمِعنا صَوتَ بُكاءٍ كُلِّ فَتاةٍ تَعرَضَتْ لِلاعتِداء، وأَسَرتها قُضبانُ العُنوسَةِ القاتلةِ، لِتُصبحَ "أَمَل" جدَيدة، وَكَمَ طفل خَطَفتهُ الأَيادي القَذِرَة والقُلوبِ المُتَحجِّرَة لينتهيَ بِهِ الحالُ جُثَة هامِدَة سَرَقوا أحشائَها لِيَبيعوها سلعةً رخيصة في أسواق تجارة الأعضاء؟!

وكم مشرّد تائه نراه فنزدريه دون أن نبحث عن ماضٍ رماه في هاوية الطرقات؟

كل يوم يحدث ذلك وأكثر، خلف الكواليس والأضواء، بينما تنعم القرى بهدوئها، والمدن بضجيج طرقاتها وأضوائها المتراقصة ليل نهار وكأن شيئًا لم يحدث!!

شتات

نحن البشر، نتقن الصراع، نتصارع على كل شيء ولا نكتفي، بل نعيش صراعات داخلية لا نعلم من أين بدأت تحديدًا، فالشخصية خليد من جينات أجداد حتى السابع منهم، ينقلها لنا من أخذوا على عاتقهم أنهم متوافقون ومؤهلون للإنجاب، نأتي إلى الكوكب ونتفاعل مع ما حولنا، نؤثر ونتأثر بكل ما ومن نصادف من أحداث وأشخاص.

وحدك الحدث الأجمل في هذه الحياة البائسة، ووحدي أعيش صراعًا داخليًّا لِشَخصيَة سايكوباتيَة مُعقدة، تَحمِلُ بينَ ثَناياها وجوه مُتَعَدِدَة، لِكُلِّ وَجهِ صفَة، وكلها أنا!

أنا الضَّاحِكُ، والغاضِب، والعاقِل، والمُختَل، يَحتَجِزُهمْ جَسدي كَأَشخاصٍ جَمعتهمْ زِنزانَة واحدَة، ويُفرَجُ عَنْ واحِدهمْ حَسبَ المَوقِف الَّذي أَتَعرضُ لَهُ، فلا أَعلَم من أين أتى هذا الشُعور، ما أُدرِكُه بِاختلافٍ نَفسيٍ داخلِيٍ، وتَقَلُّب بينَ كُلَّ شَخصيَة مِنها تَتَحركُ مُتَخَبِطة بَينَ طَيَّاتِ روحي وَكَأَنها على قَيدِ الحيَاة.

هذا سبب كافٍ للعناء، وربما تحليل لما نعيش من تناقضات،

نتأرجح بين السعادة والشقاء، الرضا والغضب، لكن لا نحوز الراحة مطلقًا!!

نقضي النهار نعارك الحياة، نواجهها فتبصق سمّها في وجوهنا، نتعلق فتحرِم، نحب فتُباعد، نكره فتقرّب، لا تتركنا نهنأ أو نهدأ، وما إن يُخَيِّم اللَّيل، ويرمي أسدال ظلامه، فتتركنا نتخبط، يندمج الواقع المرّ بخيال يَستَعِر وكأنه الجَحيم، نحيا الاغتراب وسط الأهل وفي حضن الوطن، الوطن.. يا إلهي كم هي كلمة دافئة لمكان بات باردًا حد شلّ الأطراف!!

أحداث تَتَكَرَّرُ كُلَّ يَومٍ تمارس طقوسها على أنفسنا، تعكرنا تارة وتصفو تارة أخرى، إلا أنّ هذا الكائن الصاخب يتحول ليلًا إلى مومياء، حين أرمي رأسي على وسادتي يبدأ فتيل صراع من نوع آخر، شيء يشبه الاشتعال، تحضر أفعالي كلها خيرها وشرها، ترفع أسواطها وتبدأ جلدي، أتلوى ما بين ضميرٍ هادِئ ومُرتاح وشيطان يسخّرُ كل ما لَدَيه لِيَشُدَّني بِنَفثاتِه وهَمزاتِه عنْ الطَّريق المُستَقِيم، هل يعادي أحدنا نفسه، هل تكون عدوًّا لنفسك؟ يريد الشيطان لنا الهلاك، الضَّياعُ وَالهَلاكُ المُؤكَد بينَ عذابِ ضميري ومصيري بما اقترفته من ذنوب، وسط هذا الوَيلَ والعذابَ، يَمُرُّ طَيفُكَ الهائِم على أَطلالِ الذَّاكرة، يبلسم جروحي ويأخذني من ناصيتي إلى أول لقاء جمعنا، هناك حيث ولدنا من جديد،

يَفَجَعُ فؤادي مرتين، مرة حين رحلتِ فعشت الموت وظلت روحي على قيد الحياة، ومرة كلمّا هب طيفك كما عرفتك أول مرة لم يغيّرك الزمن فيجدني على غير حالي، فأعيش شتاتًا لا جامع له!!

الغريبة المقرَّبة

في غمرة الوحدة والضياع، نسير في طرقات لا نعرفها، غرباء حتى عن أنفسنا، أمضيت سنوات عمري أقلب الصفحات أحاربها بالنسيان، فكم من الوجوه نألفها ثم تتنكر لنا في طعنة خذلان!

هكذا.. أسير بائسًا ألوم نفسي على ذنب لم أقترفه، أكويها بناري التي لم تنطفئ، تعذبني أيامي، وتتسرب أمام عيني، لستُ حرًّا بل أسير ثمالة الوحدة التي تجرعتها، أشد حبال الأيام يومًا تلو يوم؛ لتمضي دون أن أشعر بها، ثمَّ أعثر عليها.. غريبة طرقت باب قلبي برقة، كأن ابتسامتها أزالت الغمامة عن عيوني فأبصرت الدنيا كما لم أرها من قبل.

تلك الغريبة أسرتني، اقتربنا حتى عرفها قلبي فعاد نابضًا، ألفتها فصارت شمس النهار وقمر ليلي، أسكن إليها وتسكنني، انتشلتني من سرداب الكآبة القاتل، ردت لي الحياة من بعد الموت، أزالت غبار الحزن عن قلبي لينبض بقوة، ويضخ دمًا جديدًا تتفتح له أوردتي التي انعقدت بها خثرات الحسرة والندم، حضرت فحضرت معها سعادتي التي ظننت أنني فقدتها للأبد.

هو الحب، ينير عتمة النفس حين تحل روح في روحك فتتوحد بها، أحببتها بكل ما فيها، بحسناتها وعيوبها، صارت القشة التي أتعلق بها كي أنجو من غرقي، وقفت سدًّا منيعًا أمام سيل أحزاني الجارف، أدمنت حبها، ولم أسمح لذرة شك تنمو بداخلي بأن رحيلها وارد، أقتل كل فكرة تراودني بأنني قد أفقدها يومًا.

بطيبتها وعفويتها وسحرها الآسر انتزعت أنياب الحقد من قلبي، مسحت عليه بيد ناعمة، وأنارت روحي من ظلماتها، هي الطفلة المدللة التي تحرك مشاعرها أبسط التفاصيل، رأيت فيها عوضا عن كل سنواتي البائسة المظلمة.

هي بوح من خيال سرمدي، مكتملة الأنوثة، عينان ساحرتان يسكنهما الليل، تحرسهما رموش ترديك قتيلا إذا رمتك بسهم نظرتها، ولها وجه أبيض نضر، كامرأة شهية توضأت بالنور، يتدلى شعرها الأسود الناعم كأنها قمر أطل وسط الظلام، أما حديثها فهو بلسم الروح، يسكت كل ضجيج حولي فلا أسمع ولا أرى سواها، تحضر فيغيب الوجود.

هي حبيبتي.. أمل جاءني من عوالم النور أطل من وراء الغيم فأشرقت أرض أحلامي وأينعت ودفنت كل حزن تجرعته قبلها.

أيها العمر الجديد لا تنتهي، أيا انفراجة النور لا تغيبي، أنّات عاشق يخشى الفقد ويخاف الغياب، لكنّها غابت!!

هي النهايات تحصد كل الشوق، وتسحق كل شعور جميل، تعلن الموت بعد الميلاد، لا شيء يدوم، وها أنا أعود وحيدًا، بل يتيمًا، كغصن يبسٍ على طرقات الجمر يحترق ويصير فحمًا، أيعمينا الحب؟!

نعم.. لقد عميت عن كل عيب فيها، جعلتها الملاك وسط البشر، في حين تسكن الملائكة السماء، تشبثت حتى تمزقت شرايين يدي، أوصلتني شاطئ الأحلام ثم ألقت بي إلى قاع البحر غريقًا من جديد.

أنا المنسي في الظلمات، زرعت بذور الحب وتعهدها أحرسها وأرعاها، فاجتثتها دون رحمة ورمتها تحت قدميها تسحق روحي، إنه الخذلان يطفئ شعلة الحب والإيمان ويجعلك جثة على قيد حياة!!

تلك الغريبة القريبة حد العشق، رسمتُ أحلامًا فطمستها، أمنتها فسرقت مني ابتسامتي، ودهشتي صفعتني، ذات الكف الناعم صفعني كما تصفعني الحياة دومًا فلم أعد أبالي.

حسنًا أيها البائس المغدور، ها أنت تصاب بلعنة الألم والسواد من جيد، لن تعرف نفسك بعد اليوم، تشوّه قلبك وانطفأ وهجه، قتلت

روحك فصرت جسدًا من طين يبس، عش خذلانك كاملا حتى تصير رمادًا ثم انهض من جديد، كطائر الفينيق، كن نسخة جديدة من نفسك، أجمل أقوى، أكثر حرصًا عليك، لا تدع الغرباء يطرقون بابك بل كن أنت الطارق.

كن خير عاشق، وخير ناجٍ من الغرق، تعلم السباحة في بحور الحياة، فمن تعلق بغير الله ذل، اجمع ركام من سكن قلبك واصنع منهم قمما تعتليها فترى النور.

افتح قلبك للحياة، واشرع نوافذ النور لروحك ترى صورهم معلقة هناك على جدران القلب استحضر أرواحًا عشقتها، بلسم بها جراحك وامض لحياتك قانعًا، لا تترك روحك في مرمى رصاص أحدهم فيرديك، وكن لنفسك كل شيء.

ذكرى عابرة

تحتلنا الذكريات، تقفز أمامنا بلا إذن ولا ميعاد، بعد يوم طويل في العمل، عدت أجرّ خيبتي، فنحن نعمل لنأكل فقط، أما الأحلام فكلّها مؤجلة إلى أجلٍ مسمى، خلعت عني التعب وأعددت كوب شاي ساخن يبلّ ريقي، وقفت في منتصف المنزل لا يأكلني الضجر، أغرتني بعض الكتب على مكتبي، يااه الكتب! مرّ وقت طويل لم أفتح فيه كتبي، ولم أمسك قلمي، فلقمة العيش أهمّ من أمزجتنا.

وصلت يدي كتابًا كنت قد وضعته على الرفّ، تناولته وبدأت أقلّب صفحاته، لتطل من بينها صورة قديمة فتحت أبواب ذاكرتي، كانت لي ولرفاق طفولتي، باللون الأبيض والأسود، مرّ العمر سريعًا، أبعدتني كثيرًا عن طفولتي ورفاقي كنا نلعب ونلهو في شارع حارتنا، تثاءبت الأصوات في رأسي واستيقظ كل شيء، أخذت رشفة من الشاي ونفثت بغلٍّ دخان سيجارتي، ظهري مسنود على الكرسي، يدي الأخرى خلف رأسي الذي صار ثقيلًا من فيض الذكريات، أما عيناي فتسمّرت في الصورة تتأمل تفاصيلها حتى غرقت في الماضي.

أجمل فترة بحياتنا هي الطفولة مرحلة البدايات حيث نطلق أرجلنا

للريح وأيدينا حرّ من القيود، وأكتافنا خالية من المسؤوليات، أما رؤوسنا فمليئة بالطيور خالية من الهموم، جلّ همنا اللعب والغناء والرقص دون تعب أو ملل، أتذكر بيتنا القديم ورائحة طعام أمي الذي تعدّه بحب، رغم شقاوتنا، نعود راكضين للبيت، ندخل بعفوفية وفوضوية وما إن ندخل باب البيت تبادر القول وصوتها يسبق صورتها الجميلة، تأمرنا أن نغسل أيدينا لنتناول الطعام، وبعد أن ننتهي نذهب لواجباتنا المدرسية، كل منا يحلم بمستقبل واعد وماذا سيصبح عندما يكبر؟

لم يتبادر إلى ذهني يومًا بأنَّ الحياة ستكون بهذه القسوة، حياة تبكيني، تزرع الأحزان في طرقاتنا، تجمعنا الأرصفة وتنثرنا المفترقات، يصيبنا الخذلان، نسعى نحو أهدافنا، نتجاوز المطبات، نتعثر، نقع، ننهض، تضربنا الحياة على وجوهنا وقلوبنا، فمرة خذلان، ومرة هم غم وتعب، تقسو وتتمادى في قسوتها تراكم المسؤوليات الثقال على أكتافنا، نتحدى ونكافح في سبيل إثبات ذواتنا، لنحقق طموحنا ونصل إلى الهدف الذي رسمناه صغارًا، لنفي بوعود قطعناها على أنفسنا بأن نضع لنا بصمة على وجه الحياة، ذات النظرة البريئة تتعلق اليوم بملامح من في الصورة، أدرك أن الدنيا سرقت أجمل أيامنا أيها الرفاق، بالأمس كنا معنا واليوم تفرقت خطواتنا.

بعضهم سافر، والآخر تزوج، ومنهم من ترقى في عمله وصار له عالمه الخاص، أبعدتنا مشاغل الحياة ومفترقاتها فلم نعد كما كنا بهذه الصورة، لتصبح الصداقة ذكريات في أعماق الذاكرة.

فيا أحبتي.. الحياة لن تقف والعمر يمضي، ولا شيء يبقى على حاله، فلا تلتفت إلى الماضي إلا بعين خبير تعلّم الدرس جيّدًا ليحيي الحاضر ويخطط للمستقبل ببصيرة ثاقبة.

سريعًا عدت إلى الواقع بعد هذه الرحلة القصيرة من مخيلتي، أرجعت الصورة داخل الكتاب ووضعته في مكانه، ما بين ذلك الطفل البسيط إلى ما أنا عليه اليوم مررت بمحطات كثيرة، ولا زال قطار الحياة ماشيًا، سأكمل الرحلة إن رضيت أو لم أرض فقضاء الله واقع لا محالة، في محطة ما سيقف القطار، ويعلن نهاية الرحلة وعمري معًا، حتى أوان تلك اللحظة سأعافر وأقاتل من أجل أحلامي ليُذكر اسمي بعد الرحيل.

مسرحية الحياة

في إحدى ليالي أغسطس الدافئة، كنت عائدًا إلى المنزل وعقارب الساعة تشير إلى الرابعة عصرًا، الشوارع مزدحمة بالمارّة، والأسواق ممتلئة، وأصوات زمامير السيارات التي تملأ الطرقات وتصطف على جوانب الطريق هنا وهناك في تناوب لطيف، وكأنَّها لوحة فلكلوريَّة مدهشة، وسط هذا المشهد الصاخب برز المسرح القديم، جذبتني على أبوابه لافتات لعرضٍ مسرحي جديد، يقدّمه ألمع النجوم، انتابني الفضول لمعرفة أحداث المسرحية، أخذني خيالي للحظات إلي أجواء المسرح وكأنَّني بين الجمهور، أسمع تصفيقه الحار وهتافه للنجوم أثناء صعودهم على خشبة المسرح، وتلك الستائر الحمراء التي تزيد من الحماس والتَّشويق عندما تسحب متباعدة وتكشف ذلك الديكور المعدّ بإتقان، فتبرز من خلفها خشبة المسرح التي شهدت وستشهد آلاف القصص والروايات، قرَّرت الذهاب إلى بائع التّذاكر واشتريت التَّذكرة.

كان موعد عرض المسرحيَّة بعد أسبوعين، أمسكت تلك التذكرة بشوق كبير لهذا الحدث التَّرفيهي الرائع، واستدرت عائدًا أدراجي إلى المنزل، لمحت عيني شابًا دخل مسرعًا من باب خارجي موجود بجانب

كشك بائع التَّذاكر، فتذكرت ملامحه بعد معركة عميقة بيني وبين ذاكرتي التي تخونني بنسيان بعض الأمور أحيانًا، نعم إنَّه أحد النجوم المكتوبة أسماؤهم على إعلان المسرحيَّة، حاولت أن أسكت فضولي الذي غالبًا ما يقودني لارتكاب بعض الحماقات وأكتفي بالعودة، لكن لا جدوى من ذٰلك أغمضت عيني أفكر، هل أتبعه وأتحمَّل المسؤوليَّة إذا رآني أحدهم، أم أعود أدراجي إلى منزلي لينفرد بي الفضول، لحظات وكنت أمسك بمقبض ذلك الباب، دخلت غرفة مليئة بمعدات الإضاءة والتَّصوير، رأيت الملابس الغريبة المعلَّقة على الحائط، وهي مطلّة على المسرح يفصل بينهما ستارة خفيفة تخرج من خلالها لتجد نفسك واقفًا على خشبة المسرح، أسمع أصواتًا كثيرة، في المكان بعض الأشخاص منهم من عرفته بمجرد سماع صوته، إنَّهم النّجوم المشاركون بتلك المسرحيَّة والفريق الذي معهم، أدركت أنَّهم يقومون ببعض البروفات لحفظ النَّص المكتوب، ولاختبار أدائهم وجاهزيَّة الفريق بأكمله قبل موعد العرض، اختلست النَّظر من خلف الستارة لأرى النجوم وهم يؤدون أدوارهم ويتمرنون بشكل احترافي ومنسَّق، يقف بينهم شخص يعطيهم إشارات وتوجيهات، عرفت أنَّه المخرج المسؤول عن المسرحيَّة وينتقل بين النّجوم يلقن أحدهم ويصرخ على آخر، يشرح لكل واحد منهم دوره ويعطي توجيهاته بشكل جاد، كأنه مسؤول من الجهات العليا في

الدَّولة، يعطي من أقل منه رتبة أوامر لينفذها دون اعتراض.

رأيت مجموعة أشخاص يقفون بصمت، يراقبون النجوم وعيونهم تتأمل خشبة المسرح، وقد قبلوا بالأدوار البسيطة، وكأن واحدهم يرى حلمه قد تحقَّق وهو يلامس ويستشعر مذاق النّجوميَّة والشهرة، لكنهم يعاملون بقسوة، وفي عيونهم بدت لمعة حزن تعكس سوء معاملة المخرج ومساعده وحتى الممثلين لهم، لوم وإهانات توجّه لهم بتعالٍ وفوقية واضحة ومن يعترض يطرد من المكان، عرفت حينها أنَّهم مجموعة من الكومبارس المستأجر لتأدية الأدوار الثَّانويَّة وغير الناطقة، كأنَّهم يمثلون الطبقة العاملة البسيطة والكادحة في المجتمع، التي تأمَر وتَطيع بصمت دون اعتراض، فمن يعترض أو يطالب بحقه يعاقب من المسؤولين، رأيت مجموعة أخرى تهرع في المكان، بعضهم على السلالم وبعضهم ينظر عبر نافذة زجاجيَّة شفافة وأمامهم الكثير من المعدات، وبعضهم يساعد الموجودين على خشبة المسرح، والبعض الآخر يعمل على ديكور المسرحيَّة والإضاءة والصوت وخلافه من الأمور المهمَّة، يصدر المخرج أوامره لمساعده الذي بدوره يوصلها لهم وهم ينفذونها بنشاط كبير دون كلمة شكر حتى، عرفت أنَّهم كادر المسرحيَّة والمسؤولين عن تنظيمها، الذين يمثلون بدورهم الطبقة المتوسطة في المجتمع ينفذون رغبة

صاحب العمل، ويتحمّلون عواقب تقصيرهم في بعض الأحيان.

صراع طبقات مخفي خلف الكواليس، يشبه حد المطابقة واقعنا الذي نعيش على مسرح الحياة الكبير، فالمسرح يشبه الدنيا التي نعيش فيها إلى حد كبير، مقسم إلى طبقات لا يستطيع أحد رؤية ما يحصل بالخفاء، وأن الجمهور يمثل الشعب الذي يتلقى ما يقدّمه فريق العمل من جو ترفيهي، كما يتلقى الأخبار الكاذبة والملفقة عبر شاشة التلفاز التي تزيّف الحقائق.

بعضنا يدعي البطولة، وبعض آخر يكتفي بدور الكومبارس الذي يحلم في فرصة واحدة ويتحمّل المصاعب للوصول وتحقيق حلمه، وهناك مجموعة تمثّل الكادر المسؤول عن إدارة وتنفيذ رغبات صاحب العمل، ومنا من يلعب دور مساعد المخرج فيمارس سلطته على من هم أقل منه رتبة، ومنَّا مخرج العمل الذي يدير كلّ شيء، والذي يمثّل الطبقة المخمليَّة في المجتمع تأمر فتطاع، وهو الذي يشير بأصابعه وعلينا جميعًا تنفيذ ما يطلبه، وعلى الشكّل الذي يريده وعلى هواه.

غادرت المكان وأنا أشعر بالضيق، عائدًا إلى منزلي وفي طريقي أرجعت التَّذكرة للبائع، فسألني عن السبب، حينها قلت له:

- كلنا نعيش في مسرحية الحياة، وكل واحد منّا بطل في قصته،

وجميعنا نحلم بالبطولة المطلقة، بابتسامة غادرت المكان عائدًا على أقدامي، مستمتعًا بمشاهد الحياة البسيطة، وأنا بطل قصتي، وكلي يقين أنَّني سأصل نحو أهدافي ذات يوم، وحتمًا سأجد فرصتي لأكون نجمًا صاحب بطولة مطلقة في سيناريو الحياة.

أحلام بريئة

لولا الأحلام ما بقينا على قيد حياة، نولد ونعيش نقاتل من أجل حلم حتى نموت.

اليوم تعيش فاطمة أسعد أيام حياتها بعد صبر ومشقة وظروف عصيبة، رغم سنّها الصغير استطاعت أن تقف على خشبة المسرح وتغرد بكلماتها الرائعة؛ لتقدّم أجمل لوحات الطفولة البريئة، يلازمها الطموح منذ نعومة أظفارها؛ تعارك لترى حلمها يتحقّق أمام عينيها وسط تصفيق الجمهور الذي يملأ مسامعها، بالبداية انتابها الخوف والتوتر وهو أمر بديهي يصاب به المرء في مثل هٰذه المواقف، لكنَّها استطاعت تجاوز هذا، أغمضت عينيها، تكلّم روحها وتسند نفسها، وفي رأسها يمر شريط الذكريات و لقطات من الذاكرة بكل ما مرت به، والفرص الكثيرة ومحاولاتها العديدة لتصبح أحلامها واقعًا، بكل محطات الفشل التي عبرتها بصبر ويقين، أسكتت الضجيج في رأسها، وتمسّكت بهذه الفرصة وابتسمت، حاولت أن تنسى كلّ شيء حولها، وتعيش اللحظة بقوة وعنفوان، فقدمت عرضًا احترافيًّا وكأنَّها ولدت على المسرح؛ لينبض قلبها فرحًا، وعيونها ترى تلك الدموع تسح من وجنتي والدها فخرًا بها،

وابتسامة زينت وجهه الذي طالما غطّته الهموم، رقّ قلبها المرتجف بين ضلوعها، وابتلت جفونها وهي تمطر دموعًا بللت خشبة المسرح.

أرجعتها ذاكرتها إلى مواقف عديدة وما عانته حتى قطفت هذا الحلم من أغصان الطموح؛ لترى هذه الأحداث مثل شريط الفيديو يعرض بمخيلتها وكأنها تحدث الآن.

ولدت فاطمة في المغرب لأسرة بسيطة، يعمل أبوها مساعد نجار، وأمها تخبز لتبيع أهل القرية وتساعد زوجها في مصاريف الحياة وأعبائها، ولدت فاطمة وجلبت السعادة إلى قلوبهم، لكن خلف السعادة خبأ الزمان لها الكثير من المصاعب، عندما بلغت السادسة عشرة من العمر، كانت في المرحلة الثانوية حين أصيبت والدتها بالربو، مرض كان من الصعب علاجه في قرية لا يوجد فيها مستشفى، رأت معاناة أمها وتقطع أنفاسها، حتى شاء القدر وتوفيت تاركة ابنتها وزوجها وقد سلبهما الحزن على فراقها كل معاني الحياة، قطعت فاطمة وعدًا على نفسها أن تفعل المستحيل لتصبح كاتبة وممثلة، وتصل بموهبتها الرفيعة إلى أعلى المراتب.

بعد الوقت سريعًا ودخلت فاطمة الجامعة، وأخذت دور أمها إذ أصبحت تعين أباها بالمصاريف، كانت تخبز مثل أمها وتبيع لأهل

القرية لتغطي مصروفها الخاص وتنفق على دراستها، وعملت أيضا بمكتبة الجامعة، تخطت الكثير من المعاناة وهي تقطع المسافات ذهابًا وإيابًا في طريقها إلى جامعتها التي كانت في مدينة أخرى، تركب عدة مواصلات في الذهاب والعودة، تخرج صباحًا وتعود منهكة ومتعبة في المساء، حتى جاء يوم التّخرج معلنًا خلاصها، بعد انتهاء الحفل واستلام شهادة التّخرج، كان عليها الوفاء بوعدها، فذهبت مع والدها إلى قبر أمها، وجلست بجانب القبر، وهي تبكي وتقول بصوتها المبحوح:

- وفيت بوعدي لك يا أمي، وأعاهدك أن أجعلك فخورة بي دائمًا، أعلم أنك معي ولم تفارقيني لحظة، لن أنساك ما حييت يا أمي.

تأثّر والدها ومسح دموعها وخفّف ألمها، احتضنها قائلًا:

- تأكدي أنّنا نفتخر بك دائمًا، وأمك تراك من السماء وتدعو لك، وأنا أعاهدك أن أساندك حتى آخر يوم في حياتي.

عملت فاطمة جاهدة لتصبح كاتبة مرموقة، وطبعت الكثير من الكتب المشوّقة، كما عملت في المسرح بشكل مكثّف؛ لتصقل موهبتها بالتّمثيل، وأصبحت العروض المسرحيّة تأتيها دون انقطاع، إذ أحبها الجمهور، وخلال تجاربها الكثيرة تعرّفت إلى الكثير من المنتجين والمخرجين السينمائيين في مجال المسرح، وعرضوا عليها تمثيل أدوار

مهمّة في السينما، فأصبحت مع مرور الوقت من أهم النجوم المعروفين وكاتبة من الطراز الرفيع.

برغم كلّ نجاحاتها المتتاليّة، لم تنس فاطمة أهل قريتها التي عاشت طفولتها وكبرت بينهم، أنشأت مستشفى، وساهمت في بناء الكثير من المشاريع لتحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي لهم، لتصبح قصة نجاحها دافعًا ومحفّزًا لكل الشابات والشباب، وأصبحت مضرب مثل في المثابرة والطموح، فما أروع أن تحلم! وما أجمل من حلم تحققه بسواعدك!

ذكريات مسن

حين يمر العمر وتخط الأيام تعابيرها في وجوهنا وعلى أكفنا، حين ينحني الظهر، ويشتعل الرأس شيبًا، حين تضعف الرجلين التي أنهضتنا كلما وقعنا ذات شباب، حين يضعف البصر وتتقد البصيرة التي استنارت من عمق التجارب وخوض الحياة، ندرك أننا في أرذل العمر، في المطاف الأخير، نجلس فتخبرنا تجاعيد الوجه وارتعاشة اليدين تفاصيل ماضٍ أخذ من أعمارنا ورحل تاركًا ذكرياته بين محفورة في جلودنا، نجلس على عتبة البيت ونعبر الحارة القديمة مرتع الذكريات، نعود أطفالًا نركض بين الأزقة، نطوف بين زواياها، ونسترجع كل لحظة مضت بين بيوتها، نستنشق عبق الياسمين، وتأخذنا روائح بيارات البرتقال والليمون، وصوت الجارة أم حسن تعلن جلسة شاي صباحية جانب الموقد ذات شتاء، كان الشتاء دافئًا رغم برودته، تبددها حكايات الكبار، وضحكات الصغار، وطيبة القلوب وبساطتها.

أحدّق في الجدران القديمة فأسمع لها صوتًا وأنينًا، تروي حكايات من رحلوا، وتبكي ضياع ما زرعوا، حكايات محفورة بعمق أصالتها، أقواس تشبه انحناءة ظهري خاوية تذرف الدمع على أبوابها القديمة،

والنوافذ الخشبية العتيقة، منها كانت تبزغ أقمار تحيك قصص الحب والغرام، صبية في الشباك وشاب في الطرقات كعلاقة الأرض بالسماء، تثمر ذات لقاء.

مصابيح الشوارع تقف تجلى تشهد بطولات العشق، فتتفتح الأزهار وينتعش الياسمين في الأزقة.

كان الدفء والحب يشع في كل مكان، للحارة بوابة تضم بيوتها المفتوحة بأمن وأمان، تطوف أطباق الطعام بينها من بيت إلى بيت وقت الأذان، في الحارة لا غني وفقير، حالنا واحدة، وهمنا واحد، والفرح موزع ببذخ.

خانتني عصاي التي أتكئ عليها فنبهتني وأسكتت ذاكرتي، وأعادتني لواقع مرير، برد وغربة وحياة سريعة، أشكال الناس اختلفت، وصار لهم لهجة لم نألفها، وحلّت حمرة الخدود محلّ احمرار وجنات الصبايا تجلًا، خلت البيوت من أهلها، والمصابيح خفت ضوؤها، وأغلقت النوافذ والأبواب، جف الياسمين، وصارت الحياة باردة جدًا، أشعر بدفء دمعة تنزلق على خدي برفق أبكي زمان مضى، وحاضرًا باهتًا تحرسه الأمراض، ومستقبل معلوم فلم يبقَ بالعمر إلا القليل، يتردد في ذهني:

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب.

صبر جميل

للصبر مذاق مرّ وحسرة بالقلب، نتجرّعه مكرهين، لا أحد يختار قدره، ولا يضمن سعادته، كلّنا يعارك في دنيا الغرور، نركض خلف أمانينا، نقع ونصاب، ننهض ونقوى، نلتقي ونفارق ويأكل قلوبنا الاشتياق، يحجمنا الفشل، ويقهرنا الموت، دوامة لا تنتهي إلا حين يحين الأجل، ترهقنا الدنيا وما فيها، أما أنا.. فاستنزفتني الهموم الثقال، أركض أركض ولا زال الدرب طويلًا، أقف في منتصف الطرقات ألتقط لهاثي، وأرقب أسراب الهموم وكأنَّها غربان تغزوا شواطئي وتنعق بالخراب، أين ما هبطت.

وحيد أبحث عن الأمل، ولا أبصر إلا سرابًا، يحاوطني الفشل، وأنا أقف مثخنًا بالجروح والندبات، كأسير منهك جثا على ركبتيه، ورمى سيفه في أرض المعركة، ينظر إلى مصيره وتحاوطه الجنود من كل جانب.

أحاول النهوض فأسقط، تأكل الأفكار رأسي، أتلمَّس جدران روحي الهشَّة وأتكئ عليها لأستجمع قواي المنهارة، أتلقى الصفعة تلو الأخرى محاولًا الصمود بلا جدوى، لكنّ الله وهبني حبلًا أتشبت به بيدي، حبل الصبر الذي سينشلني لبرّ الفرج ذات يوم، فاللهم صبرًا جميل وبك المستعان، لن يعرف طعم النجاح إلا من تجرع مرارة الفشل والخيبات.

(الكلستروفوبيا)

الخوف من الأماكن المغلقة

كان يومًا عاديًّا، سارت كل الأمور على ما يرام، لم أدرك بتاتًا أنّه سيكون نقطة تحوّل في حياتي، حين كبست ذلك الزر ليتوقف الصندوق الحديدي، دخلت وضغطت رقم الطابق الذي أريد الوصول إليه، في منتصف المسافة، انقلبت الدنيا رأسًا على عقب، لمع شرارُ فوق رأسي ناتج عن تماس كهربائي عطل المصعد، ثمَّ غرقت في الظلام الدامس، كان النهار في آخره وقد خفّت حركة الناس في الأسواق والمجمعات، أصرخ أخبط الأبواب، ولا مجيب، شعرت أنني في القبر، مرّت دقائق وبدأ نفسي يضيق، وصوتي يخفت من شدة الصراخ، تملكتني رعشة وبدأ عرقي يتصبب.

تكومت في أرض المصعد جثة على قيد حياة، في انتظار بعث جديد، أتوسل إلى الله ألا يجعل نهايتي على هذه الصورة، تشبثت بجدار المصعد أتلمس لوحة الأزرار، علّ زر جرس الطوارئ يعمل، بدأت أضرب اللوحة بكلتا يدي، ولا مجيب.

مرّت الدقائق طويلة ثقيلة أكلت أنفاسي، ظلام، سكون قاتل،

هبوط في الضغط، ضيق في التنفس، إنها النهاية إذن، أحاول النهوض من جديد أغرس أصابعي بين دفتي الباب العالق في منتصف المسافة بين طابقين، أحاول أن أباعد بينهما علّني أرى النور، علني أخرج من بين فكي هذا الصندوق، عبثًا، شعرت قلبي يتفجر بين ضلوعي، أأموت في علبة معدنية؟!

دارت الدنيا برأسي، مثل الموت أمامي وضع يديه حول رقبتي يخنقني، ثم سقطت.

فتحت عيني على مشهد آخر، ستائر زرقاء، أناس بثياب بيض، أصوات تشبه النبض، برد وهدوء، شعرت أنني في السماء، كان حلقي يابسًا، قلت بصوت مرتجف:

- أين أنا؟ ماذا حلّ بي؟

أجابتني ممرضة وجهها ملائكي:

- أنت هنا في أمان، غبت عن الوعي بعد أن تعطل بك المصعد الكهربائي، لكن لا داعي للقلق ستصبح أفضل.

علمت أنَّني مكثت عدّة أيام في المستشفى، ومن ثم بدأ نوع آخر من الليل محفوف بالكوابيس المزعجة، أراني أختنق داخل

علبة حديدية، ومرّة أشعر بضياع وسط ظلام دانس وكأنني فاقد للذاكرة، أصبحت أكره كل شيء مغلق، الخزانة، الثلاجة، وستحكمني كره شديد تجاه المصاعد الكهربائية، صار الخوف يتملكني عند المرور من جانبها، أو الوقوف في مكان مرتفع.

ولأن السلامة النفسية هي عنوان سلامة الجسد قررت زيارة طبيب نفسي، علّني أهدأ وأخلص من الكوابيس.

وفعلا توجهت للطبيب، وقصصت عليه ما حصل معي، وكيف تتسلل الأحلام المزعجة إلى ليلي، وعن التوتر الذي يلازمني.

قال لي الطبيب: أنت مصاب بـ(الكلستروفوبيا)

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها هذا المصطلح، ابتسم الطبيب مطمئنًا، وقال:

- نوع من أنواع الفوبيا المتعدّدة التي يصاب بها الإنسان نتيجة تعرضه للبقاء حبيسا داخل مكان محكم الإغلاق.

خضعت لجلسات علاجية، ألتزم بتعليمات الطبيب حتى تحسنت، إلا أنّ الذكريات المؤلمة تغرس أظفارها في عقولنا وتقفز في كل حين.

لا زال ذلك المشهد يتردد في مخيلتي، فينقبض قلبي، موقف لحظي

غيّر حياتي، أصبحت أكثر حذرًا، أدركت أن درب الحياة مليء بالمفاجآت، فلا يطمأن أحد للدنيا، كل شيء محتمل الحدوث، كل تلك الأخبار المؤسفة التي نسمعها يوميًّا قد نكون نحن أبطالها في أي لحظة، يتكبر الإنسان ويعتد بقوته وجبروته، وقد يكتب جماد تافه نهايته.

تعلمت أيضًا أنَّ الإرادة القوية يمكنها التغلب على أي شيء، وأن الخوف قاتل أيضًا،

وأنّنا بالإيمان والعزيمة يمكننا أن نكسر سلاسل الرهبة التي كبلت أرواحنا، وأن نستعيد تلك الحياة السعيدة والطبيعية، ونجعلها أفضل بكثير من السابق، لنحيا بالأمل واليقين.

ظلم وظلمات

في عتمة الليل، ينفرد بنا الوجع، تختلف الأمور وتتبدل الأدوار، وتتسلل الذكريات تغزو العقل، فيصبح الليل أطول وأشد حلكة، الوقت الذي يقتات أعصابنا يلقي بنا في وادي الذكريات، يستيقظ الوجع، وتتدفق الهموم كأنَّها سيل جارف يشق طريقه بين الضلوع فتثقب قلوبنا.

الليل يا صديقي ليس مرتع العشاق، ولا ثوب العناق، إنما هو انعتاقنا من الحياة، ومواجهتنا لأنفسنا، يلفنا كوشاح أسود خانق، يحكم قبضته، نتصارع معه فإما نكون غالبين منتصرين على أوجاعنا، أو مهزومين محكومين بالإحباط والعدم، فتتبخر الطموحات، ويحل اليأس ضيفًا ثقيلًا يجردنا من حيويتنا، ويرسم اليأس على ملامحنا.

والليل يا صديقي لا يأتي وحده، إنما يصطحب ضيوفه معه، يمرك الواحد منهم كعابر سبيل، يقتحم الخيال ليغرس صورته في ذهنك كسهم يقطر السم من رأسه، ليستقر بجسدك يخالط دمك مشعلا فيه النيران، يذيب بسريانه كل عرق ووريد، ويبالغ حين يصل بواطن القلب فيوقظ الغافين هناك، وكم من ذكريات لا تنسى فهنا صديق

خذلنا رغم التضحيات، وذلك القريب الذي خان وتنكر فترك ندبة لا تشفى، أوليس ظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند؟!

وهناك أحباء غادرت أجسادهم دنيانا الفانية واستقرت أرواحهم في قلوبنا، فتركوا روائحهم بالذاكرة، ومن أكل حقوقنا متجاهلًا كل عرف وتقليد وميثاقًا غليظًا.

من منا لم تقبض عليه الوحدة وترديه قتيلا؟ من لم يذق لوعة الحنين؟ فلا تلم الليل وما يحمله من حسرات، فمهما خيَّم وأسدل ستائره لا بد من نهار ينسيك مرَّ سواده.

لا تستسلم

نعيش في هذه الدنيا صراعات لا نهاية لها، نهزم وننتصر، نتعثر ونقفز في ميادين النجاح، نسلك طرقًا وعرة متوكلين على اللهّٰ، متسلحين بالشجاعة، قد نفشل ونحاول فنفشل، فنعيد الكرّة حتى نصل ما نريد، ما لم يعترينا اليأس، فاليأس بداية الاستسلام، والاستسلام مهج الضعفاء.

نحن خلق الله المعجز، أرادنا أقوياء، آتانا البصر والبصيرة وخمس حواس نخوض بها الحياة، أرشدنا لطريق النجاة، فمن عزم فتوكل وأخذ بالأسباب، ثم كافح واجتهد وصبر، ضمن اللهّٰ له الفوز، وإذا ابتلاه فصبر عوّضه خيرًا مما طلب.

ندرك أنَّ المواقف التي نتعرَّض لها تحدد من سنكون، فما نحن سوى تراكم تجارب وخبرات، الإنسان الواعي وحده من لا يستسلم، ويدرك أن لا دوام لحال، فمن بعد العسر يسرًا، يعمل ما يرضي اللهّٰ ويلبي طموحاته ويحقق هدفه في هذه الحياة، لا يشغله قيل وقال، ولا يكترث بالعابرين من بني البشر.

رحلة الحياة القصيرة تحتاج عدّة واستعداد، وخطة مرسومة لهدف

مرصود، فيكون النجاح هو الرد على كل المتربصين، فالطرق الوعرة مليئة بالصخور والعثرات، إما نقع بها، أو نتخطاها بذكاء، أو نتخذ منها سلّمًا إلى العلياء.

لا شيء أبشع من اليأس، يحتل الملامح فيطفئها، ويشل الحواس فيسبتها، نموت وتستمر الحياة، فلا تستسلم وواصل كفاحك حتى النفس الأخير.

وسواس العظمة (Megalomania)

نعيش ونموت ونحن نسعى للتميز، لنرتقي بذواتنا، ونصل بها حيث نريد، والمفارقة حين نصادف نوعًا بغيضًا من البشر يرى نفسه فوق الجميع، يطغى عليهم الشعور بتعظيم الذات، حيث تكون وظيفتهم وطموحاتهم ومصالحهم الشخصية في المقام الأول، فهم بنظرهم منزهون ومتفوقون لا مثيل لهم، يحضرون فيحضر معهم ظن بأنهم الأفضل وفوق الجميع، هوايتهم التلاعب وتزييف الحقائق، يزدرون كل من يرونه منافسًا، فيحاولون القضاء عليهم نفسيًّا أو حتى جسديا إن استدعى الأمر، بغرور يدفعهم إلى انتهاك القواعد والقوانين.

ما أبشع أن ترى نفسك فوق الجميع، أن تؤمن بتفردك على الكون ومن فيه، فتظن نفسك خاليا من العيوب، هؤلاء هم المصابون بمرض «ميغالومانيا"، يتلبسهم وسواس العظمة، فيبالغون بالتباهي بأنفسهم، ووصف ذواتهم بالأفضلية والصفت الاستثنائية، وكأنهم أصحاب قدرات جبارة أو مواهب مميزة أو أموال طائلة أو علاقات مهمة، محض وهم لا يراه سواهم.

ولما قابلت أحدهم، وأصابتني شخصيته بالذهول، كيف يتغطرس ويتباهى، كيف يعبر بجسده عن باطنه المريض، استفاقت في ذهني قصة

شخصية صارت مضرب مثل منذ الأزل، لرجل قال للبشر من حوله: «أنا ربكم الأعلى»، ذلك الطاغية الذي عاث في الأرض فسادًا، ونصّب نفسه إلاهًا، حكم على أطفال بني إسرائيل بالموت لمجرد حلم راوده بأن طفلًا من نسلهم سيكون سببًا في زوال ملكه، ليأتي الطفل رغم أنفه بقدرة ربانية، كليم الله ونبيّه وأحد معجزاته، موسى عليه السلام، ظن فرعون أنه خالد في الأر ض لا محالة، فشيّد برجًا عاليا، واعتلاه بغرور متحديًّا موسى وربه، مخاطبا الحاضرين بأعلى صوته: "أنا ربكم الأعلى"، بعنجهية، فجاءه رد الجبار القهار بأن يتهدم هذا البرج، ويصبح سرابا في لحظات.

ثم يمكّن الله نبيه لقهر هذا الطاغية، فيتقدم الناس واثقًا مؤمنًا، يتوكأ على عصاه، التي رماها فإذا هي حيّة تسعى، ورفعها فشقّت البحر إذ لحقه فرعون وجيوشه بغية قتله، فعبر النبي بقومه إلى برّ الأمان، أما ذلك الطاغية الذي أعماه المُلك وساقه غروره ليتمادى في طغيانه حتى صار عبرة لمن لا يعتبر.

قصة لا تموت فحواها أنَّ الدنيا مجرد رحلة واختبار، لا فرق بين ملك وعبد، أو أبيض وأسود، فالعبودية لله وحده، والملك لله وحده، ولا فرق بين البشر إلا في التقوى، وخير الناس صاحب الفضيلة السائر بتواضع ينفع بني البشر، فيترك أثرًا وبصمة جميلة في حياة الآخرين،

ليس بشكله ولونه، أو حسبه ونسبه، ولا بالعلاقات والمعارف، ولا حتى بما يملك من ماديات.

هذه الدنيا دار فناء، لا بقاء فيها لأحد إنما لله الواحد الأحد البقاء، أعمى من نزّه نفسه وظنّ أنه قديسًا، من عاب على الناس أفعالهم وغفل عما فيه من عيوب، أحمق الصفة ستلحق بنا الأذى عندما نجرح بمجرد كلمة شعور أحدهم ونكسر قلبه أو نقلل من شأنه لربما كان أفضل منا وكما قلت مسبقا : ليس منا شخص كامل أو مخلد فلا تقيس الملك أو النسب وغيرها من هذه المكتسبات الزائلة والتي لا بد من أن تذهب لغيرك إن رضيت ذلك أو رغما عنك بمقياس الأفضلية على حساب الآخرين، لا أنت أفضل منهم ولا هم أفضل منك إلا بما تقدمه أيديكم بتسخيركم لكل شيء في خدمة الآخرين ، لنكن متواضعين فالتواضع والمعاملة الطيبة تمتلك بها قلوب الجميع وسيقدمون لك الاحترام الذي لن تكسبه أبدا بالعنجهية عليهم ومعاملتك السيئة لن تجلب لك سوى الخزي والذل والكره وإن كانوا يخافون من سطوتك، لابد أن تزول في يوم من الأيام وعندها وإن ملكت الدنيا لن تنفيك ولن يحميك شيء ويرد عنك ما ستراه منهم فراجع نفسك وأرجع عن هذه الأفكار التي لن تجلب لك سوى البؤس بنهاية المطاف

غريب

يحدث أن يضيق علينا الوطن الفسيح، وتتنكّر لنا الحياة في أوج طاقة الشباب، نخرج من عالم الطفولة دون أن نعيشه، نجد أنفسنا مكبلين بالظروف، تحكمنا تفاصيل صغيرة، نتعب ونكافح من أجل أحلام وطموحات نراها كبيرة بينما هي حق مشروع لكل إنسان في وطنه، أن تتعلّم وتعمل وتمتلك بيتا وسيارة، أن تتزوج وتكوّن أسرة ليست أحلامًا كما تبدو لنا، إنّما الطموح أن تحلق بفكرك وإنجازك، أن تتميز في الميدان الذي وهبك الله الإبداع فيه.

في حين يفخر الغرب بابتكاراتهم وتحقيق أهدافهم، نركض نحن خلف لقمة العيش، للرغيف في وطني ثمن باهظ، تفني شبابك من أجله، لقيماتنا مغمسة بالدم في بلد محتل، يتحكم فينا القاصي والداني.

نغتر بفتوتنا، وتأخذنا العزة بالإثم فنفكر في مفر وحيد، نعيش الاغتراب فنختار الغربة، حين تلمع بذهن أحدنا فكرة الهجرة لبلاد الراحة والمال والاستقرار، يغشى الضباب بصيرتنا، وتضيق الأوطان مهما رحبت، نعزم ونشد أحزمة الرحيل، وسط حسرة أمهات تجرّعت المرّ لترى نتاج ثمرات رعتها منذ بكورتها، حتى أينعت فتراها تهرب في

البعيد، وأعين آباء ظنوا أنّنا عكازا متيناً يتكئون عليه إذا بلغوا الكبر، فتنحني ظهورهم وهم يرقبون الرحيل.

من منا يختار وطنه؟

ولدت لأسرة بسيطة، سندتني حتى تخرجت أملًا بأن أحظى بوظيفة أشق بها طريقي نحو الاستقرار، فصرت رقمًا في طوابير الخريجين، وزبونًا وفيًّا في مقاعد العاطلين عن العمل، المتسولين للأمل، أجلس يوميًّا على الطرقات أرقب وجوه الناس البائسة، كلٌ يركض وراء رغيف الخبز، الكثيرون يرهنون أعمارهم للبنوك من أجل بيت أو سيارة، وبعضهم يبيع أرضه ليزوج ابنه ويحصنه من الضياع، تبًا لحياة تأخذ ولا تعطي.

مقاهٍ تعج بالشباب يتجاذبون أطراف حديث ناقم على الواقع والمجتمع، نعيب زماننا والعيب فينا، بعضنا يتمرّد على واقعه فيختار الرحيل، وأنا أيضًا خيّل إلي عالم وردي ينتظرني برفاهيته، تغشاني أحلام اليقظة، فأراني أجرف المال وأغدق على عائلتي التي سوف تفتخر بابنها المغترب، ثمّ قد أحظى بحبيبة شقراء تسرُّ الناظرين، ربما أعود زائرًا فأبهر أهل بلدتي بسيارتي الفارهة، تسقط يدي التي خدرت تحت رأسي فأستعيد وعيي.

مرة تلو مرة تلح عليّ أحلامي، فأتشجع وأقوم كمن أصابه مس لأعلن قراري.. في جمعة عائلية أتجرأ وأفجر قنبلتي، حسنًا عليكم أن

تتقبلوا قراري، من يحبني يحب لي الخير، مستقبلي في مكان آخر غير هذا الوطن البائس، ترمقني أمي بعيون دامعة، وتشرع بمحاولاتها العاطفية لتثنيني عن قراري، يزمجر أبي:

- اعقل يا ولد ما في أحن من الوطن.

أسخر من دموع أمي وأعاند كلمات أبي، حتى باتت سهراتنا حلبة مشاحنات ومشاجرات يوميَّة.

ثمّ تأتي ساعة الرحيل أحزم أمتعتي، وأفرد عضلاتي وأوراقي، ألوح مودعًا دون النَّظر في وجوه قد تستميلني فأتراجع.

عند الباب زورني أبي بنظرات تتهمني بالخيانة، لا لست خائنًا بل حالمًا فاحترموا قراري.

لحظة الوداع وقفت أمامي محاولاتي العديدة لتقديم أوراقي والتنقل من شركة إلى أخرى، كان الرد واحدا في كل مرة أترك رقمك الخاص وسنتصل بك لاحقًا، حتى باتت كذبة من الصعب تصديقها، أتقدم للأمام، وتلفني الطريق إلى المطار، وداعًا أيها الماضي، وأهلا بحاضري ومستقبلي.

إجراءات وذل عشته لساعات حتى وصلت درج الطائرة، جلست

في مقعدي، فاجتاحني سيل من المشاعر المتناقضة، تبًا هل أشعر بالحنين ولم أغادر سماء الوطن بعد؟!

الأفكار تترى على رأسي، يكاد ينفجر من إلحاحها، استمع إلى روحي تصرخ وكأنّها تعلم بما أنا مقدم عليه، ما بين الخضوع للوضع الراهن تاركًا الأهل والأحباب أو التّراجع عن السّفر، لوم يصاحبني في بداية الطريق، فأقول في نفسي لعله الخوف من التَّجربة.

في حقيبتي الصغيرة عالم كامل من التّفاصيل والحسرات، تبوح بكل ركن من المنزل، ذكريات وأحداث، دموع أمي على كتفي ورائحة أبي بين ضلوعي، أما دعوات أخواتي فترن في سمعي، أحاول عبثًا إسكات هذا الضجيج، تخالطه تعليمات كابتن الطائرة، وتوصيات الأمان وكأنّنا متّجهون للموت، لحظات وبدأ الاقلاع، حركة شلعت قلبي الذي كاد يقفز من بين الضلوع، أمعن النّظر من شباك صغير لمدينة صارت تصغر وتصغر وتصغر حتى تلاشت، احتضنني سماء الوطن، خيّل إلي أنّ أرواح الشهداء تحوم حولنا، وابتعدت كثيرًا، حتى اختفت ملامح الوطن.

وضاق النّفس بجوفي وكأنّني تركت روحي على أرض المطار، ساعات ثمّ وطأت قدماي بلاد الحلم، وما إن وصلت حتى بدأت

المعاناة ما بين البحث عن السكن والعمل، ولغة لا أفهمها، أناس غرباء، جفاف يحيط بس من كلّ مكان، وجدتني وحيدًا جدًا، معاناة كبيرة، وتَحَكُّم الآخرين بي، تنكرهم لهويتي وتنمرهم على ضعف لغتي، وتغوّلهم على حقوقي، جعلني أعرف المعنى الحقيقي للغربة، عرفت معنى أن يكون لك وطن، أنت فيه عزيز رغم الذّل والإهانة، تبادر لذهني قول الشاعر:

بلادي وإن ضاقت علي عزيزة وأهلي وإن شحوا علي كرام.

أدور في الشوارع وحيدًا، فلا صديق يؤنس وحدتي ولا أسرة تعوضني دفء الشمس في وطني، وجدتني في مأزق.

بعد كد وتعب وسهر وذل، وجدت عملًا يدرّ عليّ المال لكنّه يسلبني طعم الرضا والراحة، فما نفع شهادتي بين صحون مطاعم الغربيين وأطباقهم؟!

أتواصل مع أهلي، أطمئن صوت أمي المبحوح من حشرجة البكاء، فأقول أنا بخير.. وأواسي أبي الذي يتظاهر بالقوة بينما يعتصره الشوق.. أنا بخير، أرد على أسئلة أخوتي وأخواتي وأصدقائي.. أنا بخير، كم تمنيت لو انفجرت مثلهم بالبكاء وقلت بأعلى صوتي لست بخير أبدًا، ليتني أملك الجرأة على الرجوع عن قراري كما امتلكها ساعة القرار.

مرّة علمت أنّ أمي أثقل المرض صدرها، وأصاب الوهن قلبها، فزّ قلبي، وقبضت الغصة على حلقي حتى كدت أختنق بدموعي، صرت مثل طفل فقد طيف أمه، مثل واحد فقد بصره فغشيه الظلام، سنة واحدة بالغربة علمتني معنى أن تكون غريبًا، عرفت أنّ حضن الأم وطن، ورائحة الأب وطن، ولا شيء يعادل تراب الوطن، لملمت نفسي وركضت يسبقني قلبي، ألقي بالتّذكرة في شباك الجوزات، ركبت أول طيارة قاصدًا وطني، مرّت الساعات كأنّها شهور، وصلت لاهثًا، طرقت باب بيتنا، لم يجبني أحد، ألقت جاراتنا الخالة سعاد زغرودة فرح بعودتي، قطعتها دموعها حين صرخت: الحق أمك يا أحمد، أمك في المستشفى!

رميت حقيبتي تغرقني الدموع وركضت إلى أمي، اجتزت الطرقات والشوارع وعبرت الأبواب مسرعًا، وصلت غرفة أمي في المستشفى، كان كلهم حضور إلا أنا، ألقيت جسدي بأحضانها أقبل يديها وقدميها، أرجوك أفيقي يا أمي أنا هنا، بللي لحيتي بدموع الفرح فلن أغيب، فتحت أمي عيونها، تبسمت فعادت لي الحياة والذكريات والوطن.

الحيوانيميا

ونحن نعيش حالة من الخوف والهلع الغريزي من الموت، نتحصَّن في بيوتنا التي لن تسلم حتمًا من كائن دقيق تسلَّل عبر الهواء، وحّد الكون وجعلنا مواطنين صالحين مطيعين، نتّبع الأنظمة والقوانين، علّنا نتشبّث بخشبة النجاة من فيروس دقيق لقّن البشرية درسًا قاسيًا، كثيرون شككوا بهويّته، وبعضهم ممن يؤمنون بنظرية المؤامرة قالوا إنه مفتعل، أيًّا كان الحال، لا بد لنا أن نعترف بأن فيروس كوفيد 19 «كورونا» قلب الموازين على كوكب الأرض.

نتابع الأخبار التي تأتي بكل الطرق الحديثة، أينما وليّت وجهك تسمع نصائح وإرشادات، وتحوم حولك الشائعات من كل حدب وصوب، فيتوقّف الحسّ النقدي والريبة، فنحن أمام ضرب من الحيوانية المدجّنة، تألف اقتيادك راضيًا مرضيًّا إلى العزل والنبذ والحظر وقطع الحركة والاتصال عنك.

في عز خوفنا وعزلتنا نتفطن لأمراض أخطر من كورونا، نتمّعن في أحوالنا وعلاقاتنا، فنكتشف أن أدق تشخيص لمرض ينجر جسد مجتمعنا العزيز هو «الحيونيميا»، مصطلح أصابني بنوبة من الضحك حدّ

البكاء، فعلًا كم عرض نعاني منه بسبب علاقات غير صحّيّة، بداعي الصداقة والأخوة والزمالة، التي تتحول إلى حالة عدائيّة حالما انتهت المصالح وسقطت الأقنعة.

مرض يفتك بثقتك بجميع من حولك، لا يسعفك ارتداء الكمامة، فلن تمنعك من الإصابة بالعدوى بل يأتيك مباغتة، فمن مأمنه يؤتى الحَذر، حين يخون الصديق، ويتخلى الأخ، ويتنكّر القريب، ويتحوّل الحبيب لعدو لدود يعرف مكامن الضعف في روحك فيغرس طعنته هناك في العمق.

حيوانات على هيئة بشر يقتحمون عالمك كالكلاب الضارية التي إذا ظفرت بما تريد تلهث بسرور وتهز أذنابها، حتى تطمأن لها، فتقع ضحية استغلال جشع، حتى إذا انتهت المصالح كشروا عن أنيابهم، ويغادرون إذا اطمئنوا أنهم أصابوك في مقتل، هنا يصيبك الندم الذي لن ينفعك، والحسرة التي لم تعيد ما فات، وتطرق الأسئلة جمجمتك حد الصداع، كيف أمنت لهم، كيف فتحت قلبي وصدقت كذبهم ونفاقهم، فضفضات وأسرار وعطاء لا محدود، يذوي أمامك مرة واحدة ويخرّ معه جسدك ضعيفًا فاقدًا ثقته ومانعته.

وكما يفجع المرء بخبر مرض خبيث تصيب الصعقة أركانك فتهزك،

تعيش حالة صعبة، تبكي تتوحّد، تنعزل عن العالم، تراجع كل علاقة في حياتك، تضعها تحت مجهر الاختبار والتمحيص، لتعلم كباحث في أعماق الروح أن الشفاء يكمن في قلبك أيضًا، فأنت وحدك القادر على التغيير، فإذا سامحت نفسك على أخطاء ارتكبتها بداعي الطيبة والسذاجة، وتحب ذاتك وتمنحها قدرها، تنفق الوقت تبني شخصيتك، تصوّب وتصحح وتقوّم حتى تصبح نسخة أفضل منك، تضع أهدافك أولًا، تنكر النفاق وتلفظ الحقد، وتحلّق بروحك في سماء النجاح، حينها لن تشفى وحدك فحسب، بل يشفى كل من يتعامل معك، فقد أغلقت كل ثغرة قد يتسلل المرضى إليك من خلالها، لم تعد ضعيفًا، ولا بائسًا، ولا فاشلًا بل إنسانا مكتمل النضج والحياة.

ولتعلم أنَّ الله خلق أجسادنا آلات معجزة غير قابلة للمرض والتلف، فإذا أسأنا استخدامها وسمحنا للأمراض باختراقها أصابنا المرض ووقعنا فريسة للآلام والأوجاع، كذلك نحن في علاقاتنا مع من حولنا، نجذب من يدلنا على مواطن الضعف والقوة فينا، فلا تندم على شخص ظهر بحياتك، بل تمعن وافهم السبب الذي أدى لظهوره، الضعف أم عدم تقدير الذات، أم النقص، أم غيرها من الظواهر السلبية.

كلما كنت سليم القلب، صادقًا مع نفسك تحسّن محيطك وما يجري

فيه من أحداث، ولتؤمن بقدرتك على تمييز الطريق الصحيح، صاحب الأخيار دومًا، من يأخذون بيدك للنجاح النجاح والسعادة دون طلب، الذين إذا ما أصابك مكروه وجدتهم جانبك، وتذكر «صديقك كالحبل المتين الذي يسحبك إما للقمة أو إلى الهاوية».

جريمة شرف

وقف الرجل العجوز ذو الشعر الأشعث والملامح البائسة في قفص الاتهام مطأطئ الرأس ذليلًا، طرق القاضي بمطرقته الخشبية على الطاولة تمهيدًا للإدلاء بالشهادات، فوقع الطرق في رأسه لتفيق كل الذكريات المدفونة هناك، حيث فرحته بميلادها، وأول سن لها، ومشيتها الأولى، وكلمة بابا التي كانت أول ما درج على لسانها، لهفتها عليه حين يعود منهكًا من العمل فتنتشله من تعبه، غابت الأصوات وحضر صوتها، تلاشت الصور وتجلّت صورتها أمامه بكامل هندامها، تعاتب، تبكي، تستجير، تحاول صد سكين والدها الذي حرق الشيطان رأسه حين صدق أنها من أهل الفاحشة، تسربت لسمعه قصص وحكايات حاكها شياطين الإنس من أهل الشبهات، فسبق السيف العذل واغتال شبابها وسمعتها وراحة العائلة كلها.

قطع القاضي شروده وبادره بسؤال:

- لماذا قتلت ابنتك؟

فشرع يقول بصوت بحّه الندم:

نعم يا سيدي قاتل..

اقتلعت وردتي ظلماً بخنجر الحاقد الجاهل

واحتسيت السّم من قهري.. نعم أنا الفاعل

وها أنا ذا أعض أصابعي ندما وعن الحقيقة غافل

سرقت شبابها وبيدي حرقت روحها.. نعم يا سيدي قاتل

لكنّ الجمر في صدري مشتعل

رأيت دماءها تجري والكون ينوح من حولي

ويردد هذا الدم طاهر.. نعم يا سيدي قاتل

واليوم أنا نادم حقا ومشتاق لها جدا

فأسرع بي يا سيدي إلى حتفي فقتلها ليس من حقي

لعل الله يغفر لي ذنبا قام به جهلي.. نعم يا سيدي قاتل

ساد الصمت المكان، وابتلت وجوه الحاضرين، كان شيب ذلك الأب ينوح في رأسه ويداه ترتجف من حرقة قلبه، وأنصت الجميع للحكم، سجن مؤبد؟

وماذا يفيد السجن وهو صار أصلًا أسير فعله وإجرامه؟

لا حاجة لي بعمري يا سيدي فصادره.. قال الأب.

ذلك الأب ليس وحده ففي السجن الكثير من ضحايا جرائم الشرف، منهم من شفى غليله وانتقم، ومنهم من تعجل فظلم، قصص كثيرة زادت في عصر الإنترنت والتحضر الذي شدّنا للجاهلية بعنف، شباب وفتيات بعمر الورد تسيطر عليهم الشهوات فيقعون فريسة للابتزاز حتى مصيدة جرائم الشرف التي ينزفون فيها أرواحهم وأعمارهم.

في هذه الحالات بالذات يغيب العقل، يتصدر العرف المواقف، ويغلي الدم في العروق قبل تبين الحقائق، فتجد الأخ يتحول من ستر وسند إلى قاتل، والأب يتحول من حضن ودفئ وملجأ إلى قاتل، يتسابق العم والخال والأقارب من سينال شرف غسل الشرف، تناقض مشوّه كتشوّه مجتمعنا، الذي يغفل التربية حتى يقع الأبناء في شرك الجرائم، يتحول من المنطق إلى العار، نساء فاقدات للعاطفة والحنان، ضحايا للحرمان يستقطبهن ذئاب طامعون بشهوات دنيئة ليست هي الغاية من غريزتنا البشرية القويمة.

الكثير من هٰذه الجرائم الممنهجة ضد النساء في المجتمعات العربية أصبحت هاجسًا وسببًا لتفريغ ما بداخلنا من تشوّهات وعقد نفسيَّة، مجتمع غير منصف، لا يحاسب الشاب كما تحاسب الفتاة.

جرائم الشرف تعدم الطموحات والأحلام بعقلية رجعية لا تمت للإسلام بصلة.

رجل شرقي

كانا يسيران في الحديقة يغمرهما الحب، لكنّه تقدمها ببضع خطوات، توقفت وصرخت:

- هلّا انتظرتني؟

رد عليها متردّدا.

- حسناً أنا هنا معك، أحميكِ.

- لست بحاجة لحماية إننا في حديقة لا غابة!

- كشّر وفكّر، «كنت أرى أبي دايما متقدمًا في مشيته عن أمي».

تراجع وسار جنبها، مرّت سيارة تباطأت بجانبهما وأطلق السائق صفرة إعجاب بجمالها، ثار جنون الشاب وأطلق لسانه بالشتم والسباب.

غضبت الفتاة ونعتته بالرجل الشرقي.

جنّ أكثر وكأنّها تسبّه.

- ما قصدك برجل شرقي؟

يجب أن أكون ديوثًا ذا عقلية غربية تقبل أن تحكمها أنثى وأن يتغزل بها الرجال فأضحك؟!

هزّت رأسها وقالت له من الصعب النقاش معك حتى تهدأ، عادا إلى البيت وحضّرت لها الغداء الذي كان سيعزمها عليه في أحد المطاعم الراقية.

قال لها معاتبًا:

- كنت سأوفر عليك عناء الطبخ فهل أنا رجل شرقي؟

أجابته بهدوء وابتسامة جميلة على وجهها:

- كنت ستعزمني فعزمتك لا فرق بيننا أيها الشرقي.

وطلبت منه أن يؤجل النقاش ريثما ينهيا طعامهما.

بعد الطعام، طلبت منه أن يعدّ القهوة بينما ترتب هي المطبخ.

في مشهد رومنسي جميل تعاونا وهما يصنعان جوًّا أسريًّا ينبئ بأسرة ناجحة يكللها الحب.

في الشرفة المطلة على شارع ساده الهدوء ذات عصرٍ حيث هدأ السوق وخفتت أصوات الباعة التي تعبت من الصراخ منذ الصباح.

قالت له:

- حسناً أيغضبك أن تكون رجلًا شرقيًّا؟

- نعم.. شعرت أنك تهينينني!

- لا يا حبيبي.. ألست رجلًا؟

- صرخ: كفي عن المزاح بلى رجل ولا أقبل الانتقاص منك مهما بلغ حبك في قلبي.

- ضحكت وقالت:

- حسناً.. اهدأ، أولستَ شرقيًّا بملامح عربيّة أعشقها؟

هدأت ملامحه، يحب طريقة زوجته الذكية بامتصاص غضبه، ويحب أسلوبها المقنع:

- بلى شرقي عربي وأفتخر.

هزت رأسها مؤيّدة:

- إذن لم أشتمك فأنت والحمد لله رجل، وزاد رجولتك كونك عربي شرقي، اسمع يا حبيبي

هناك رجال وهناك ذكور، ليست الهيئة من يحدد الفرق إنما الشهامة والمواقف والأخلاق التي تظهر نتاج تربية أهلك لك.
عدّل الزوج جلسته وهز رأسه بإعجاب، أكملي أكملي.

- يا حبيبي الذكر هو الذي يظن الأنثى جارية وجزء من متاعه وممتلكاته، همجي لا يحترم، يتخذ الشر سلوكًا، دائما يقع في المشاكل، مستبد في رأيه ومواقفه، عنجهي متغطرس، يسمح لنفسه بارتكاب الحماقات والأخطاء فالمجتمع دائمًا من صفّه، ينصفه إذا اعتدى على الأعراض، وإذا قتل بداعي الدفاع عن الشرف، وإذا كان بلطجيًّا، وفي كل الأحوال لمجرد كونه ذكر.

أما الرجل يا زوجي وسيّد الرجال في نظري، فهو شهم غيور على دينه وعرضه، حليم يتمالك نفسه عند الغضب، يعلي شأن المرأة سواء أكانت أمه فهو ابن بار، أو حبيبته فهو عاشق يفيض بالمشاعر، أو زوجته فهو زوج كريم، أو أخ فهو أخ رحيم، بكل حالاته ومواقفه رجل، يبتعد عن كل ما يعيبه وينتقص من رجولته التي يفتخر بها، يعتد بنفسه ويسعى لخلق أسرة ناجحة مكللة بالحب والحنان والدفء، يحتوي زوجته ويحسن تربية أولاده لا يفرق بين ذكر وأنثى.

قاطعها الزوج يريد المزيد من كلامها الذي يقع بقلبه موقع الشهد في الفم:

- وأنت سيّدة النساء فالنساء أنواع يا عزيزتي بعضهن قشور ومثلك جوهرة مكنونة حظيت بها.

أكملت الزوجة:

- الرجل العربي يا حبيبي يتربى على تعاليم الإسلام، هو ابن والد زرع فيه القيم والأخلاق، وأم أرضعته حليب الشهامة والحب، وأنت فيك كل هذه الخصال لهذا أحبك بل أعشقك.

احتضنها بحب وهمس في أذنها:

- يا حبيبة الرجل الشرقي، قومي نتناول الحلوى حيث تريدين.

الذُّكورة هي النوع، أما الرجولة فهي الفِكر، الجنس يصنف ذكورتك أما السلوك فيحدد رجولتك، الذكورة

الذكورة بنسختها الباهتة السلبية في ملامحها مرض صعب جدًّا، بل مُتلازمة مَرضية تبدأ من تربية الآباء والأمهات لأبنائهم وبناتهم، وتنتهي بنهايات مأساوية مُجحِفة لمجتمع كامل.

أما الرجولة فهي الثوابت القوية والترجمة الفعلية لعادات وتقاليد نشأنا عليها، الرجل إنسان رضع الكرامة بالمهد، لا يقبل الخنوع أو الذل حتى لو كلفه الأمر أن يبذل روحه في سبيلها، خصاله الحميدة تمنعه من ارتكاب الحماقات والأخطاء، ليس كل رجل يستطيع تحمل المسؤولية ويكون قادرًا على تحمل الصعاب لذا ما أكثر الذكور وما أقلّ الرجال.

جشاعة أب

جلست الطفلة رنيم في أكثر الغرف ظلامًا، كتفت يديها وقد سقط رأسها بينهما فوق ركبتيها تبكي بحرقة، لكنها تحاول كتم نحيب بكائها خوفًا من أن يسمعها والدها، فتتلقى المزيد من الضرب المبرح، في ذلك الوقت كانت أمها أمام البيت تحاول أن تبرر للجيران الذين اجتمعوا على صوت الصراخ.

وكانت أختها أميرة ذات الثلاثين عامًا تنظر إليها بشفقة وعجز تام؛ لأنَّها لا تستطيع أن تساعدها حيث كان الأب يقوم بضربها لساعات وأحيانا لا يتركها حتى تفقد الوعي هي الأخرى، على عادته حين يفقد عقله من شدّة السكر، يضربها بيديه بعنف شديد، أو بعصا سميكة، فيملأ جسدها بالكدمات، دون ذنب، هي وأختها، لطالما تغيّبت رنيم عن المدرسة حتى تزول الكدمات من وجهها وجسدها.

كانتا تسألان أمهما عن سبب قسوة وسوء أبيهما، ولماذا يسكر في المنزل هكذا، ما الذي أوصله لهذه الحالة، ولماذا تزوجته وأنجبت منه؟؟

أسئلة تعذب قلب الأم حتى تنهار بالبكاء، خاصة حين تقول

إحداهما:

- لماذا أنجبتنا للعذاب؟

الأم التي لا تنجو هي الأخرى من الضرب والتعنيف، تضم ابنتيها وتبكي حتى تثقل عيناها فتنام، ليستيقظ البيت كله على صراخه، هو في حالة جوع دائم للطعام والسكر والصراخ، حاولت الأم أكثر من مرة أن تشتكي لأهلها وأقاربها، لكنَّه في كلّ مرة يذيقها من صنوف العذاب ما يجعلها تتمسك ببناتها وبيتها، البيت الذي تعيش فيه كأسيرة في زنزانة، ترى تعذيب زوجها لطفلتها التي لم تتجاوز الخمسة عشر عاما، طفلة في مرحلة عمرية بأمس الحاجة للرعاية والحنان، تحتمل من الضرب والتعنيف ما لا يحتمله أحد من غريب، فما بالك الأب الذي من المفترض أنه الدفء والملجأ والسند؟!

حسب اعترافات الأب ذات الخمسين عامًا في جلسة التحقيق، قال إنَّه كان جالسًا أمام التلفاز وممسكًا في يده سيجارة واليد الأخرى زجاجة الخمر الذي يفقده وعيه ويحوّله إلى وحش بري يدفعه بأن يتصرف بلا وعي فيعامل أهل بيته بكل سوء ويعنفهم بأبشع الطرق.

يحاول أن يقنع المحقق بأنه ليس مجرمًا:

- إنّه الإدمان يا سيدي، لا أعرف ماذا أفعل، وأندم أشد الندم بعد أن أفيق

يوبخه المحقق بضربة على رأسه:

- أكبر ظلم أن يتزوج أمثالك ويفتحون بيوتا يحولونها إلى مآتم أيها القاتل السّكير.

سرد هذا الجشع الفاقد لمعاني الأبوة تفاصيل الحكاية، إذ إنَّه عندما أجبرها على الخروج من المنزل في الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل؛ لتشتري له علبة سجائر، لم تجد الطفلة المسكينة الخائفة دكانًا أو كشكًا في الطرقات المظلمة، كلّ الناس أغلقوا محالهم وهجعوا في بيوتهم، وخلت الشوارع من الناس، كانت تسير بسرعة يرتجف قلبها من الخوف، خوف من الظلام والشارع، وخوف مما ينتظرها من عقاب، لمحها ثلاثة شبّان من بعيد، فاقتربوا لمساعدتها، فمن الغريب أن تكون طفلة بعمرها خارج البيت في هذا الوقت المتأخر من الليل.
ارتجفت أكثر حين رأتهم يقتربون منها، وصرخت وهي تبكي:

- أرجوكم لا تؤذوني، أريد أن أعود للبيت.

أدرك الشباب أن ثمّة شيء يهدد الفتاة، فسألوها عن سبب

خروجها، لتجيبهم:

- كنت أبحث لأبي عن سجائر.

جواب أثار الغرابة في نفوسهم، هل هو معاق؟!

هزت رأسها بالرفض

- إذن هو مريض ولا يستطيع النهوض من الفراش؟

هزت رأسها وهي تنتفض، ليفهم الشباب أن والدها إنسان سيء، فطمأنوها ورافقوها للمنزل خوفًا من أن يتعرض لها أحد بسوء.

دق أحدهم الباب، ففتح والدها، وأطل رأسه بشكله القبيح ورائحة الخمر تفوح منه، اندهش من رؤية ابنته مع ثلاثة شبان وهي تلك الحالة من الخوف.

بادر الشاب الذي أمسك بيد الفتاة لتطمئن:

- يا عم كيف تخرج ابنتك المسكينة في هذا الوقت والبرد؟ ألا تخاف عليها؟ وجدناها تركض خائفة ليس هناك أي كشك أو محل مفتوح، ابنتك بأمان لكن لا تغامر بها مرة أخرى فالطرق مليئة بالوحوش.

صار الأب يتمتم ويتلعثم بكلمات بلا معنى من شدة سكره، أخذ الفتاة منهم وأغلق الباب في وجوههم بعنف، وسألها:

- أين السجائر؟

وقبل أن تجيب انهال عليها بالضرب بشكل وحشي، وكأنه بركان يغلي يضربها بكل قوة، وسيل من الشتائم القذرة، تزيده عنفًا، دون أن تدافع المسكينة عن نفسها، حتى سالت الدماء منها وفقدت وعيها لتخرج روحها البريئة في تلك اللحظة إلى خالقها.

سمع الشباب الذين لم يبتعدوا عن المنزل كثيرًا أصوات الصراخ والبكاء والضرب، فهرعوا مسرعين ليجدوا المجرم وهو يحاول الفرار بعد أن قتل ابنته أمام أهل بيته دون ذنب، أمسكوا به وشدوا وثاقه واتصلوا بالشرطة، ولم يغادروا حتى أتت سيارة الأمن وأخذت المجرم وكانت معها سيارة إسعاف لنقل الجثة للمشفى القريب حتى الصباح ليباشروا بالإجراءات والتحقيقات.

نامت تلك البريئة إلى الأبد، لم تكن تعلم أنَّها هربت خوفًا من ظلام الشارع إلى أحضان الموت ظلمًا، إذ كان خصمها ينتظرها في المنزل، نامت كحال غيرها من ضحايا التعنيف الأسري؛ ليبقى دمها الطاهر في رقاب المسؤولين عن محاسبة كل من تسول له نفسه أن يعنف روحًا

بالكلمة أو بالقوة أو يزهقها لتضيع أحلامها قبل أن تبدأ.

أعلنت حربي

اليوم أستيقظ من أوهامي والواقع السيء، شاب بحكمة شائب نضج عقله وشاب شعره، في داخلي طفل صغير تعلّم الدرس جيّدًا، بتُّ أعلم يقينًا أنني وحدي أصنع غدي، أنني وحدي انتشلني من الهموم التي جلبتها لنفسي حين سمحت لبعضهم بالاقتراب حد الأذى، بتُّ أميز الخبيث من الطيب، وأقرأ النوايا من الوجوه، صالحت ذكرياتي التي كانت تخزني كلما أويت إلى النوم، صارت كلّها دروسًا وعبرًا.

في هذه الحياة تنتصر حين تقول كفى، كفى للحزن، كفى للخذلان، كفى للاستغلال، تتبعها بـ «لا» حين ينتظر الجميع منك كلمة نعم، حين تتوقف عن العطاء بلا أخذ، وعن التسامح مع من يسحق كرامتك، حين تبحث عنك في دواخلك، تركض خلف نجاحاتك، تنتزع طموحك من رحم المعاناة؛ ليكبر شيئًا فشيئًا أمام عينيك حتى بلوغ المراد.

ثمَّ إني أعلنت حربي، حربًا على الخاذلين، على المحبطين، على كل المنافقين الذين يرتدون وجوههم كل يوم كما يرتدون ملابسهم، يتبدلون ويتغيرون حسب مصالحهم، جمعت كل هؤلاء في غربال الصدق فسقطوا، ولم يعد لهم في الحياة مكان.

وسأصاحب كتبي وأقلامي، بها يستنير عقلي ويفيض قلبي، سأقف في منطقة وسط بين عقلي وقلبي، فلا أميل ولا أستميل، ولن أعرف إلا السعداء والناجحين، فمرحبا بعالمي الجديد الذي سأعيش فيه كل يوم كأنه الأخير في حياتي، وسأبذل كل جهدي وكأنني مخلّد لن يموت، فنحن البشر لسنا أجسادًا على هذه الأرض، إنما أرواح يخلد منها من يترك أثرًا.

وأنتم رفاق الرحلة، أيّها السائرون في درب الكفاح، الغارقين بالسلام من بعد حرب استنزفتهم، المهادنين للحياة والمعادين لأشباه البشر، أهلا بكم في عالم الراحة والهدوء، عالم السعادة والنجاح، الفائزين بغنائم الدنيا.

أما من تركتهم خلفي ولفظتهم من حياتي، قل موتوا بغيظكم، فلم يعد لكم مكان، وشكرًا لكم، ليس لأجلكم بل لأجلي، سأعترف كنتم سببا في هذا النجاح، كنتم خير دافع وحافز لأجد نفسي حيث دفنتموها، حاولتم تشويهي فصرت الأجمل بينكم، ها أنا ذا أفوز على ضحايا حربي.

جرح لا يلتئم

نبدو أجسادًا كاملة، لكن في جوف كل منا جرح لا يلتئم، جروح لا ينجو منها أحد، في حربنا مع الحياة توجه نحونا سهامها، فمن لم نجا من الموت لم ينجو من طعنة قريب، أو خذلان حبيب، أو فراق أو مشاعر ألم أحدها الآخرون ورحلوا.

ونحن نبحث عن التعافي، نشير إلى جرح قديم، ثم كذبًا نقول:

"كان هنا جرح آلمنا ثم التأم"، جراح قد تلتئم بالعفو والتراضي، وبعضها بالانتصار للنفس واسترداد ما سُلب بعد أن تدور الدوائر وتُرد المظالم.

وقد تشفى تمامًا حين تفهم الدنيا وأحوالها، حين تدرك أن لا دوام لفرح أو ترح، تنجو بنفسك من كل آفة عثرت عليها في رحلتك فأصابتك في مقتل، إلا من الفراق، يطبق على قلبك وروحك يخنقك حتى يرديك قتيلا على قيد الحياة، فهو القاتل الصّامت، والقاهر الوحيد، والجرح الّذي لا يبرأ.

المسكّن الوحيد لألم فراق الأحباب، الذين فارقونا بالجسد وظلّت

أرواحهم عالقة في ثنايا القلب والروح هو الصبر رغم لحظات الضعف التي تلاحقنا من حينٍ إلى حين، فالنفس ضعيفة هشة لا تتحمل فكرة غياب الأحباب، الأب والأم والأخوة والأخوات ومن بلغنا في التعلق بهم مرحلة لا فكاك منها، كل ما يتوجب علينا فعله الصبر والتقبّل، فقد يكون فراقهم بلاءً يختبر الله به صبرنا فإن صبرنا نرقى به إلى مراتب الصابرين.

حيث يقول عز وجل: «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ» اجعلها تملأ فؤادك وترويه بماء الصبر واليقين اصبر واحتسب كل ذاك الألم عند الله واعلم أن الله سيعوضك بلقائهم في جنات النعيم ونعم الجزاء.

اكتموا نزيفكم بأيديكم واستمروا بالمسير، فاليوم أقدامكم على الأرض تمشي، وغدًا أنت جثث تحت التراب، الدنيا كذبة كبيرة فلماذا نعيشها بكل هذا الحزن؟

على أَعتَاب المشانِق

في العاشر من رمضان، في تمام الساعة الواحدة وثلاث دقائق في منتصف النهار، كانت الحرارة قاسية جدًا في ذلك اليوم، عندما وقفت أنا وزملائي الثلاثة في ساحة الإعدام مغمضي الأعين ومكبلين بالسلاسل.

ما زلت أذكر التفاصيل وكأن الرباط الذي كان يغطي عيني قد فك عنهما، أشعر بمن حولي جيّدًا، الأصوات كثيرة، هناك حشد يتعدى المئة رجل ملأوا المكان هنا وهناك، حالة الخوف والرهبة مزقت أوصالي.

نساق وأصوات السلاسل التي تكبلنا عندما يسوقونا في الممر الطويل لذلك المكان ما زال صداها في أذني إلى اليوم، توقفنا أخيرًا، هدأ كلّ شيء، وكأن الدنيا من حولي أصبحت صامتة بظلمة حالكة؛ ليقاطع أحدهم هذا الصمت بصوته الغليظ ويقرأ علينا لائحة التهم.

كانت وحسب قوله تتجاوز السبع عشرة تهمة، وبعدها انتهى بنطق الحكم الذي كان بمثابة كابوس لنا طوال سبعة وأربعين يومًا مضت،

الحكم بالإعدام شنقًا، شعور اختلط به الخوف واليقين الكامل بالموت الحتمي.

بدأ التنفيذ، ووقف أولنا على منصة الإعدام، ما زال صوت الحبل وصوت المقبض الذي يشدّه ذاك الملثم في أذني، والكلمات الأخيرة لزميلي الأوَّل وصوت جسده وهو ينزلق ويتدلى من طبلية الإعدام يشعل في داخلي نيران وآلام لا يمحيها الزمن، بنفس الألم، وما عشته أثناء تنفيذ الحكم على الشّخص الأول عشته بتفاصيله عند تنفيذ الحكم المشؤوم مع باقي رفاقي.

والآن حان دوري، ارتجفت قدماي وهي تقف على تلك المنصة، وكأن روحي استلت منهما، تملّكتني القشعريرة، وعيوني التي آلمتني من الحسرة والويل وأنا أشهد نهايتي.

فك ذاك الملثم الرباط عن عيني ورأيت كلّ شيء، وفي لحظة إمساكه للمقبض وبعد أن لفَّ حبل المشنقة على رقبتي، شعرت بخشونة الحبال تأكل عنقي، لكن قبل أن يضع المقنع كيسًا من القماش الأسود على رأسي ليعود الظلام مرَّة أخرى، دخل سبعة عشر رجلًا يتقدمهم شيخ على وجهه ملامح الوقار والرحمة، تكلّم مع الضابط خفت لوهلة أن أكون موهومًا/ وأنه عندما ينهي حديثه سيذهب ويستأنف

الضابط تنفيذ الحكم.

وقع كلام الضابط على أذني كالصاعقة، حينما قال:

- " فكوه واتركوا سراحه".

كاد قلبي أن يتوقف، وشعرت بإحساس لم أشعر به من قبل، وكأنّه ميلاد جديد يجبُّ كل ما عشقته قبله.

وها أنا اليوم، كلما تذكرت هذا الموقف أشعر بذلك الإحساس الغريب وكأن كل ما حدثتكم به يحدث معي الآن.

جمرات متناثرة

- ”حين يجتاحك صراع داخلي قف بين عقلك وقلبك في منطقة وسطى، أنصت إلى روحك فإن للروح صوت لا يخيب“.

- ” لا تعزف على وتر مقطوع، عبثًا تحاول، فلا تخسر جهدك كمن ينفخ في قربة مثقوبة“.

- ”كن كنزًا ثمينًا يتقاتلون للفوز بك ويخبئونك داخل قلوبهم، ولا تكن هدفًا سهلًا لبنادقهم يصطادونك ليعلقوا رأسك على الجدران“.

- ” قلب أنهكته الهموم، علاجه القرب من الله بذكره تطمئن القلوب، وتزول الخطوب، فكلما وقفت بين يدي الله بقلب سليم عدت إنسانًا جديدًا“.

- ” لا تكن فريسة سهلة للألم، أحسن مخاطبة نفسك، قدّر ذاتك، ضلّل الفشل بخطة محكمة تصنعها لنفسك، فلا يعرف لك طريقًا“.

- ”مخطئ من يظن أن بينه وبين السماء حاجزًا، أجلس على

سريري أرى النجوم تلفني من كل جانب، وألامس الشمس والقمر، بالخيال تصنع المستحيلات".

- كن في الحب طيرًا تقطعت أوصاله من شدّة العطش حتى اهتدى لمن يروي ظمأه في صحراء الحياة».

- " وحدها المرأة البائسة تلامسها مشاعرها وتطلق أنفاسها ببطء وتعزف ترانيم حزنها، تسير على ألحانها حافية القدمين، وتستشعر بأصابعها برودة المكان، تسافر روحها في وهم الذكريات العابرة، تلملم آلامها المتناثرة متعثرة بين طيات الماضي الغابرة، كفي عن النحيب وانطلقي لعالمك ففي الحياة ما يستحق الرقص لأجله".

- "بعضهم لديه قلب دافئ، لحديثه حلاوة تشبه الرشفة الأولى من فنجان قهوة طيب مع نسمة هواء باردة".

- « أنا معاق، إن خانتني قواي وخذلتني أقدامي، سأصنع من ضعفي قوة ومن تلك العجلات الموحشة سبيلًا للصعود على سلم المجد، لن يمنعني عجزي عن الوصول للقمة «.

الخَاتِمَة

تلك كانت حصيلة خبرتي في حياة أنضجتني قبل الأوان، فإذا قرأتها فقد وقفت على مفاصل مهمة، كن حكيمًا في حكمك ولا تغامر بنفسك، اجعل من خبرات الآخرين دروسًا وعبرًا في رحلتك لتبلغ المجد دون كدمات.

أخاطب فيكم الفكر والعقل، وأنا ألهث على أوجاعي، وأسمو عليها، أحلق في عوالم الروح لأقطف لكم أنضج الثمار، ثمار لا تؤكل على عجل، بل تهضم على مهل في بواطن الإدراك، رحلة الدنيا القصيرة نمشيها على طرقات الجمر، متمسكين بالأمل ليمضي بنا قطار الحياة نقوده بشغف ووعي، منّا من يبلغ غايته ومنّا من ينال شرف التجربة، ودوننا من يظل عاجزًا في طريق الخوف فتسحقه الحياة تحت عجلات دورانها.

واجه حاضرك بقوة تستلهمها من ماضيك، فكلنا الطالب المتعلم والمعلم في رحلته فحذاري من الهرب، حاول ثم حاول ثم حاول حتى انتهاء أجلك، فالمتعة بالرحلة أعمق من متعة الوصول، أتمنى لكم وصولًا آمنًا مع فيض محبة.

الكاتب: يزن حمدان

نبذةٌ عنْ الكاتب:

يزن حمدان كاتبٌ أردنيٌ ولدَ عامِ 1996 يقيمُ في مدينةِ الزرقاءِ، وسطَ عائلةٍ بسيطةٍ يستوحي كتابتهُ منْ البيئةِ المحيطة، مما قرأ وسمع وعاش، أثارَ اهتمام منْ حولهِ ليبدأَ مسيرتهُ في الكتّابةِ ولديهِ العديدُ منْ المشاركاتِ والمحاضراتِ في مجالِ الكتّابةِ، كلماتُهِ في صميم المُجتَمع والحياةِ والإرادةِ والأمل.

فهرس المحتويات

الإهداء	3
المقدّمة	5
الجمرة الأولى	7
رسالة إلى قلبي	9
موجٌ مِنْ حَقيقَة	10
الزائر	14
السجين رقمِ 7	16
قرية منْ الهاويةِ	18
شتات	23
الغريبة المقرَّبة	26
ذكرى عابرة	30
مسرحية الحياة	33

أحلام بريئة 38
ذكريات مسن 42
صبر جميل 44
(الكلستروفوبيا) 45
ظلم وظلمات 49
لا تستسلم 51
وسواس العظمة (Megalomania) 53
غريب 56
الحيوانيميا 62
جريمة شرف 66
رجل شرقي 69
جشاعة أب 75
أعلنت حربي 81
جرح لا يلتئم 83

على أَعتَاب المشانِق	85
جمرات متناثرة	88
اَلْخَاتِمَة	90
نبذةٌ عنْ الكاتب	91